القسم الرابع

هذه هي الحقيقة اليقين الديني يتعارض مع الظن الفلسفي

الفصل الأول

الفلسفة الهندية أصل الفلسفات

تعطل العقل وتغوص في الفناء وتعلن الحلول!

والآن بعد ما أسلفنا. نعود فنتذكر صديقنا الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود، الذي أطال مع رفاقه من نوعه هذه الحملة الجاحدة على العقل العربي، الذي لا يزال يكتب بلغته، ويتعامل بها بين قومه العرب، وهم الذين كانوا ولا يزالون – في مصر وغيرها على أرض الوطن العربي –يعتصمون بإيمانهم، ويستمسكون بدينهم، ويعملون جاهدين لكي يجددوا في هذا العصر – في صحوة ذاتهم وآمالهم – مرحلة ناصعة من مراحل تاريخهم الديني المتواصل الحلقات من أول الزمان، برغم فترات التخلف القسري، أو الغفلات العارضة..

إننا نبدأ الآن، وبعدما قدمناه من التمهيد في الفصول السابقة – هذه المواجهة بالرأي والحجة مع هذا التفلسف الهندي، الذي يلح عليه – مع نظائره – رائد الفلسفة الوضعية الكهل المجرب، وهو يدعو إليه بكل ما لا يملك سواء من الجدل العقيم ، والعبارات المنهوكة، والمكابرات الواهنة، التي بلغت به حدًا رضي لنفسه معه أن يصدر في نشوة تزعمه لحركة حلحلة الأصالة العربية، وفي عقر دارها في مصر، كتابًا بعنوان «الشمس تشرق من الغرب»!

نعم .. نبدأ الآن مواجهة هذه الفلسفة الهندية، الأم الذاهلة بشخوصها للوهم، وفنائها عن الواقع، لجميع الفلسفات الأوربية، والغنوصيات الشرقية، ومعنا صورة لهذه البدعة غير العلمية في مثل كتاب صديقنا الشيخ الدكتور زكي نجيب محمود الذي ينكر فيه على مواطنيه يقينهم بهذه الحقيقة الفلكية الأزلية والمتجددة، وهي شروق الشمس من الشرق وليس من الغرب، والذي يتوهم معه أنه كاف لإقناع مواطنيه العرب – بعد إضحاكهم على حماسته – لكي يديروا ظهورهم

لشمس أصالتهم التي تشرق بمقوماتهم من الشرق، إلى شمس التفلسف الغاربة التي تشرق في رؤى الدكتور زكي ورفاقه .. من الغرب!!

اليقين الديني:

في الكثير من آيات الله في القرآن الكريم تذكير بنعمة الله بهذا العقل الذي يهدي إلى الإيمان بالله الحق، والذي هو بهذا الإيمان نور يدرك به المؤمن – خلال سعيه وعمله وتفكره – قوانين الخلق، وسنن الخالق، وهي تتعاقب فيما حوله. إنه يدرك هذه القوانين والسنن بما يؤهله لكي يبنى دنياه وآخرته بهذا اليقين العلمي، والعلم اليقيني، بما لا سبيل معهما إلى الحدس والظن، ولا إلى الإبهام والاستعجام، أو إلى هذا التصور الوهمي «الفلسفي» الذي يستبدل معنى «العدم» بعد إغلاق العقل والحواس – كما هو في الفلسفات الهندية – بهذا الواقع المحس والمدرك في الآفاق، والمتجدد التدفق، والدائم النمو، والذي يهدي التفكر في آياته إلى الله، وإلى العزة به، وبالعلم النابع منه ، وبالحب المتوجه إليه، في هذه الحياة..

يقول سبحانه في نعمة العقل:

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 28]

ويقول في بيان القرآن وحجته التي يدركها العقل إدراكه لمسلمات العلوم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]

ويقول سبحانه:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾

[العنكبوت: 43]

ويقول سبحانه على لسان رسوله من أن الدعوة إلى الله يقينية فطرية لا ظنون ولا تفلسف فيها:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف:108]

ويقول سبحانه في أن الإيمان ببرهان آيات الله هو الحياة لعقل المؤمن، والنور الذي يديه بهذا العقل إلى اليقين بالدين، وإلى الاستزادة من العلم، بعيدًا عما يشبه الموت في ظلمات الظنون التي يتخبط فيها المتفلسف بغير عقل، وعلى غير هدى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: 122]

وعندما نرجع إلى أقرب العهود التي تفشت بها هذه الظلمات الفكرية، المستغشية بظنونها تحت عنوان «الفلسفة» نجد أمامنا لجج ومتاهات ورموز هذه «الفلسفة الهندية» التي يرى مؤرخوها أنها الأصل والجذر للفلسفة اليونانية برغم اختلاف وجهة كل منهما في محنة التجريد والتظنن والاستبطان، فضلاً عن أن الهند كانت منطق هجرة العديد من شعوبها باتجاه أوربا لتعميرها بهذه الشعوب التي لا تزال تسمى بالشعوب الهند وأوربية، ومن طلائعها اليونان الذين بدءوا «التفلسف» بعد تأثرات عربية كنعانية وعربية مصرية في مجالات علمية وعمرانية ، وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد..

على أن هذا الخلاف في وجهة كل من الفلسفة الهندية بظواهرها العامة، والفلسفة اليونانية بخصائصها المعروفة، لا يتعدى هذا الأثر البيئي، الناجم عن الفارق بين حياة الاستقرار في منطقة استوائية شديدة الحرارة، بالغة الخصب، دافعة إلى الخمول كما هو في الهند، وبين حياة

الحركة القاسية في منطقة جليدية، بالغة الجدب، دائمة الغيوم، حافزة بالمجاعة على العدوان وباشتهاء المتاع على الخمر، في حين يقضي كبار الأدمغة منهم لياليهم الطويلة بجوار المدفأة، ينسجون خيوط أوهامهم عن الواقع المحيط بهم، والعالم المغلق عليهم، فكرًا «فلسفيًا» صوريًا، وظنيًا تجريديًا، ينطلقون به مع أهداف الكهانة الفكرية، والسيادة الطبقية، والأرستقراطية اليونانية، بعيدًا عن هذا الواقع.. وبعيدين عن اليقين بأي شيء فيه في سماواته وأرضه، وعاجزين عن الاتساق مع ما تتزاحم به آفاقه من إيقاعاته وحركته.. أي عاجزين عن تبين الطريق الواحد إلى الدين الحق.. ومن ثم عن أي التزام بأخلاق وشريعة وغايات هذا الدين الحق.

عالم الأوهام:

إذن فمن الفلسفة الهندية الأم نقدم المثال على الطبيعة الشاملة لظواهر عالم الأوهام الفلسفي، وعلى طقوس هذا العالم العدمية، والحلولية، إلى حد السذاجة التي تنتهي إلى الشعوذة، وإلى حد الانتفاع الذي ينتهي بتصور حلول «الروح الأول» برهمن – المزعوم – في كل الأشياء، حتى البقر والحيات والجرذان والصراصير!

وهذا المثال الموجز سنقدمه من مصدر لا نشك في صحة عرضه لأنواع ومراحل وأهداف وتوهمات هذا التفلسف الهندي حتى أحدث العصور، وهو الكتاب الموجز الذي أصدره باللغة العربية في القاهرة في 20 من جمادي الآخر سنة 1380 و 9 من ديسمبر سنة 1960 الفيلسوف الهندي المسلم أبو النصر أحمد الحسيني بعنوان : «الفلسفة الهندية – دراسة بعض نواحيها مع المقارنة بالفلسفة الغربية».

ويفتتح الفيلسوف الهندي هذه الدراسة بآية من القرآن الكريم يشير بها إلى فضل « الحكمة» كما نوه بها كتاب الله بقوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ

﴿مَن يَشَآءُ﴾ ، مبتدئًا من هذه البداية بإيهام القارئ بصحة هذا الخلط المتعمد بين «الحكمة» في بيان القرآن ولغة العرب، وبين «الفلسفة» في مفهوم الهند وبلسان اليونان، حيث أن أول من أجاد فهم كلمة فلسفة Philosophy هو أفلاطون في القرن الخامس قبل الميلاد. وحيث إن المقابل لكلمة الفلسفة بمفهوم «المعارف السرية والظنية» في تدرج كهنوتها الطبقي كلمات أشار إليها المؤلف في اللغة الهندية مثل «أوبانيشاد» ومعناها بالسنسكريتية الهندية: «الجلوس بقرب الأستاذ لتلقى أسرار العقيدة» أي أسرار الفلسفة بأشكالها الهندية الشخوصية وغير العقلية المتعددة..

وبعد أن يتكلم المؤلف عن مذهب «أذوائيتا» من مذاهب هذه الفلسفة الهندية، ومعناه مذهب «وحدة الوجود» – يتكلم عن فلسفة عجيبة أخرى يسميها بعد ترجمتها «فلسفة كأن» ويصفها بأنها واحدة من الفلسفات الهندية التي تسير بمفهوم شامل: «نحو غير المعقول، في سبيل الفناء، وتأكيد الحلول»!!

ثم ينتقل بعد محاولة تفسير عجائب وحلزونيات «فلسفة كأن» ليتحدث عن فلسفة «ويدانتا» التي توصل إلى استنباطها الفيلسوف شنكرا، فيقول عنها إنها تنقسم إلى قسمين: أحدهما المبدأ «الباطني» ويقوم على «حقائق» ما وراء الطبيعة «وقد أنشأه للناس الذين يقدرون على فهمه وهم قليلون في كل زمان ومكان» !!

والقسم الثاني خارجي، أي «المبدأ الخارجي» وهو يعني المجال التجريبي المحس، وهو لعامة الناس الذين يريدون الحقائق المحسة وليس «الحقيقة المجردة» التي تأتي مباشرة من العبادة والفكر والتأمل!!

ثم يقول المؤلف أيضًا عن هذه الفلسفة وما تقوم عليه من خصائص التفلسف الهندي غير الواقعي:

«إن هذه الدنيا «مايا) أي وهم، وليست الحقيقة. هذه هي الفكرة الأساسية الدقيقة في فلسفة «ويدانتا» الباطني، والتي لا تنال بتقادير فكرية، بل بحالة «أنو بهوا» أي بالرجوع من هذه الدنيا الملونة إلى معزل عميق في أنفسنا، أي في «آنماننا».. اعمله أن إن شئت فأنت تعرف به الحقيقة التي تختلف كثيرًا عن حقيقة «التجربة» وهي حقيقة مجردة عن الزمان والمكان والتغير»!!

ثم ينتهي المؤلف الفيلسوف الهندي أبو النصر الحسيني بعد الإفاضة فيما سبق إلى الكلام عن فلسفة اليوجا التي اشتهر بها عدد من فقراء الهند الذين يتظاهرون بالقدرة على بعض الخوارق فهو يقول:

«يوج» معناه باللغة السنسكريتية الاتصال والانضمام، وهو اسم يطلق في الفلسفة الهندية وديانتها على مذهب خاص. وخلاصة هذا المذهب وتعليمه كما هو عند جميع المذاهب الصوفية، الإصرار والتأكيد على أن هناك إمكانًا للاتصال المباشر بالله، وذلك برفع مستوى الإنسان عن مستواه الطبيعي، ومتى ارتفع الإنسان إلى ذلك المستوى نال عند أصحاب هذا المذهب النجاة النهائية من جميع أدوار التناسخ للأرواح..»!!

ثم يقول بعد بعض الشرح:

« ينشد مذهب يوج أنه يجب علينا أن نقهر نطقنا – أي كلامنا – ونحوله إلى الإحساس، والإحساس إلى الفكر، والفكر إلى الشعور العام. حينئذ نقدر به على أن ندرك عمق الطمأنينة الموجودة في السرمدي.. إننا لا يمكننا أن نبلغ العلو المنشود إلا إذا هدأت المصادر الخمسة للعلم، وهي الحواس. وسكن العقل والفهم. والطريق لارتياد الهدوء والسكون هو تركيز أفكارنا وحواسنا في هدف واحد ومحو الأهداف الأخرى»!!

وراء الباب المغلق:

ولكن .. وبعد هذا التلخيص المتيسر لفلسفة تعطيل العقل، والغوص باتجاه الفناء، وتوهم حلول الروح الأعلى، ، وما يتصورون انه الخالق باسم «برهمن» في هؤلاء العدميين في لحظة فنائهم، وعندئذ يكشف لهم عن علمه. ويحل فيهم بقدرته- نجد أن الهند وهي لا تزال وراء هذا الباب المغلق من فلسفاتها الباطنية العدمية الحلولية ، عصورًا وقرونًا طويلة، لم تستطع أكثر من تبرير ابتكارها الاسترخائي عن العقل والعلم، ، وعن العمل والحياة. فالهند عجزت عن أن تتوحد، كما عجزت مع إفادتها مع ثقافة الغرب بعد استعمارها الوحشي من الإنجليز أن تستفيد من جوانب تقدم الإنجليز. فلا يزال الفقر مع وفرة الغنى يسحق فقراءها بعشرات الملايين، كما أن المرض مع الفقر يزيد من أعباء هؤلاء الفقراء المضيعين بين طبقة مترفعة من المترفين من المهراجات وأشباههم إلى حد الهوس، وطبقة أخرى من المتماوتين من مريدي وكهنة هذه الفلسفات التي ترفض العقل، وتعطل الحواس، وتحلم بالفناء الخالد، وبالروح الأعلى الوهمي الذي تطمع أن يحل بها فتملك ما يملكه المهراجات، ولكن من غير جهد .. ومن غير عقل !!

وعندما أشرقت شمس الإسلام بالحق على ربوع وآفاق الهند لم يلبث الهنود الذين أسلموا أن حاصروا بأغلبية محكمات الدين الحق بمفاهيم فلسفاتهم الطبقية والعدمية الغربية، وذلك تحت عنوان «الباطن» و «الظاهر» في مثل فلسفة «ويادنتا» وغيرها، حتى خرج أكثرهم من هذا التأويل بهذه المذاهب الصوفية المتعددة التي ابتعدت كثيرًا وهي تنشد «الحقيقة» وتطلب ما يرضي الله، من حيث ضلت الطريق القرآني المفتوح على ملكوت السموات والأرض بآياته، وبمنابع اليقين والعلم به، واقفة في

حيراتها وراء هذه الأبواب الهندية الفلسفية المغلقة.. بينما الباب إلى هدي الله ورضوانه لا يزال – وبخاصة على أرض العرب أرض الرسالات والآيات – مفتوحًا غير مغلق، الطريق المطروقة إلى هدى الإسلام الخالص، والسلام الكامل.. ولا يزال رحبا غير ضيق.. ومضيئًا غير معتم..

على أنه مهما كان الخلاف بين من أغلقوا أبواب الفلسفة عليهم لينفذوا من أرضها أو من سمائها إلى «مقام ما وراء الطبيعة» وإلى « أوهام ما بعد تعطيل العقل» فإن ما ينبغي أن نؤكده هنا للأخوة المسلمين من الهنود أن برهمن، أو البريم آتمان، أو «الروح الأعلى » ليس مطلقًا هو الله الحق، الذي ليس كمثله شيء، والذي لا يحل بروحه بهذا المفهوم الهندي في شيء، ولا يحل فيه شيء، فهو سبحانه : (لا تدركه الأبصار ويدرك الأبصار) وقد (علم الإنسان ما لم يعلم)، وجعل آيته إلى هذا الإنسان هذا «العقل» الذي هداه بحكمته ورحمته إلى برهان الله المشرق في السماء والأرض، ليزداد المؤمنون بهذا العقل إيمانًا مع إيمانهم، وهم على ربهم يتوكلون، وبأعمالهم الصالحة في الدنيا ونحو الآخرة يعبرون، في حياة وسط، لا يبيعون فيها الآخرة من أجل الدنيا، ولا ينسون نصيبهم من هذه الدنيا، عمرانًا لها، وإصلاحًا ورخاء وسلامًا بها، من أجل هذه الآخرة بعدها.. والله سبحانه هو القائل في نعمة الحواس التي يوقع تعطيلها في فتنة الكفر، وظلمة الجحود، لأنها مقومات ازدهار العقل ، الذي هو طريق الإيمان: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: 23]

ويقول سبحانه فيمن عطلوا حواسهم حتى لا تقودهم إلى ما يهديهم إليه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ ﴾ [الجاثية: 23] .

ويقول سبحانه في أنه مصدر النعمة بالسمع والبصر والعقل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 46]

ويقول سبحانه عمن يلومون أنفسهم يوم القيامة على ما عطلوا به حواسهم وعقولهم فلم يتفكروا ولم يؤمنوا:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

ثم يقول سبحانه عن نعمة البيان العربي لم استبانوا برهان الله في حركة السموات والأرض، مرهفين حواسهم، ومتفكرين بعقولهم، سعيًا إلى الله عبادة له، وعزة به، وليس حلولاً أو فناء فيه، فكان لهم من فضله، ولمن أحسنوا إتباعهم من بعدهم، هذه النعمة الكبرى بالدين الحق، واليقين المستبصر، والإسلام الخاص، والبيان المستبين:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] :

ويقول سبحانه في تأكيد هذا المعنى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: 44]

نعم.. كيف يكون أعجميًا .. وهو بلسانه العربي المبين.. هدى ويقين.. وشفاء للنفوس والعقول من سراء «التفلسف».. وتيه الظنون ..!!

الفصل الثاني
كلمة الله المشرقة في لغة العرب
ليس لها مقابل في اللغات الأخرى

من المحقق أمام الباحث المسلم، المتمكن من اللغة العربية والتاريخ الديني ، والواسع الاطلاع على لغات وتاريخ العالم المحيط به حول الدائرة العربية والإسلامية، أن كلمة «الله» لا توجد بهذا التنزيه الكامل لاسم الله تعالى، في صدق الدلالة عليه، والإشارة إليه، في أية لغة أخرى، ولا شك أن الكثيرين من الباحثين الأوربيين المنصفين، ممن درسوا الإسلام واللغة العربية، قد أدركوا بقدر المتاح لهم كثيرًا من مزايا وخصائص هذه اللغة القرآنية المبينة، وربطوا بينها في اتساع معانيها، وتميز أدائها، وقوة تأثيرها الصوتي على سامعها، وبين ما تميز به الإسلام بين الرسالات الكتابية من سرعة الانتشار، وقوة الاستمرار، وبقاء مصدره الأعظم في القرآن الكريم نقيًا من التحريف، متسع الرحاب على جلاله لجميع من يستمعون إليه ويخشعون لله على صوته، من العملاء والعامة.

ولئن كانت كلمة «الله» التي يدور من حولها توجه العرب المؤمنين إلى الله تعالى بالدين الحق، واليقين الخالص، والصدق الفطري الذي لا يتناقض مع العلم، ولا يتخلف عن الحياة، هي الكلمة الأولى التي نقارن بين كمال دلالتها وإشارتها في اللغة العربية وبين قصور الكلمات المقابلة لها في اللغات الأخرى، وهي تتردى في غيابات عبادة الطبيعة وأرواحها، فلا شك أن هناك كلمات أخرى كثيرة في اللغة العربية ليس هناك ما يقابلها في تلك اللغات الأجنبية والأعجمية مثل كلمات: العقل والقلب، والإيمان والإسلام، والحق والعدل، والرحمة والسلام، والإنسان والبشر ، والرجل والمرأة، والسماء والأرض.. التي هي في العبرية عن العربية «آرص» والتي نقلها الإنجليز عن اليهود بقولهم بلسانهم «إيرث» وبحروفهم earth.

كلمة .. الله:

في العودة إلى الجذور اللغوية نجد أن كلمة «الله» قريبة في ظاهر حروفها من كلمة «إلاه» ونجد إن الفعل أله: يأله ومصدره إلاهة أو ألوهة يعني عبد: عبادة. نجد من ذلك أن كلمة «إلاه» على وزن فعال ترد بمعنى «مألوه» أي معبود. وعلى ذلك فكل معبود حق أو باطل فهو إلاه عند من يعبدونه.

كذلك فإن كلمة أَلَهَ بمعنى عبد تعني في اللغة العربية أيضًا معنى أجار وأمَّنَ ، أي أن من صفات الإلاه المعبود أنه أمام من يعبدونه هو «المجير» لهم من الخوف و «الملجأ » لهم بالأمن، وهذا من الأسباب التي أوجبت عبادتهم له.

هذا عن كلمة «إلاه» .. فماذا عن كلمة «الله»؟

اختلف علماء اللغة باختلاف مذاهبهم، وتفاوت صحة العربية في ألسنتهم، حول كلمة «الله» إلى عشرات الأقوال، أما أقربها إلى الصواب فهو القول بأن اسم الله «علم غير مشتق وأصله إلاه».. كما جاء في القاموس المحيط ومن سار على نهجه.

أما الصواب فهو ما نتحدث عنه هنا من فضل الله وذلك حيث نقول: إن حرف الهاء في كلمة «إلاه» وكلمة «الله» هي في اللغة هاء «الغائب» للدلالة على أن المعبود الحق، الحاضر أمام البشر في كل لفتة إلى الوجود، وأقرب إليهم من حبل الوريد، هو في غيبه بعيد عن الحواس، ومنزه عن التجسيم، وهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار. والمعنى أن المؤمنين الصادقين الذين يعبدون الإلاه الحق إنما يعبدون هذا المعبود الواحد

الأحد، الخالق المدبر الذي هو في تنزهه عن التحديد والتجسيم غائب عن حواسهم، وبكل رحمته وآياته حاضر في حياتهم.

ومع تمام البيان والإفصاح في اللغة العربية تجلت بتمام نورها ودلالتها كلمة «الله» وذلك بإضافة أل التعريف إلى حرف «الهاء» الدال عليه «هو» الغائب الحاضر، ثم بإضافة أل التعظيم أيضًا لتشرق وتتجلى كلمة «الله» بكمال دلالتها على هذا المعبود الحق، الواحد الأحد، الخالق المدبر، الذي له الأسماء الحسنى، والذي ليس كمثله شيء، لتمضي هذه الكلمة بأشواقها «نورًا على نور» لا يأفل في كتبه، ولا في آياته، ليهتدي إليه المؤمنون الصادقون، كما شاء لهم رب العالمين.

هذا الكمال في الإشارة المشرقة المبينة إلى الله الحق في اللغة العربية، منزهًا سبحانه في ندائه ودعائه عن التشبيه والتجسيم، لم تلحق به اللهجة العبرية وهي تنزل إلى المرحلة الأولى من الإشارة إلى المعبود الغائب الحاضر بقولها: يا هو... وهكذا مع مرور الزمن، ومع تلاحق التحريف على اللسان العبري، ومع اختلاف أكثر اليهود بعد موسى على أنبيائهم، وعلى الصحيح من معتقداتهم، تحو نداؤهم لله الغائب الحاضر من «يا هو» إلى «يهوه».. لكي يصبح بعد عصور شتاتهم في أوربا إلى جاهوفا في اللسان الأوربي..

هذا بالنسبة للغة العربية في ألسنة شعوبها اللذين تحققت لهم في أكثر إتباعهم الصحيح لرسالات الله إليهم معرفتهم وعبادتهم «الله» الحق، في صحة البرهان عليه، والإشارة إليه، منزهًا من التحديد والتجسيم، وعن الأشياء والشركاء، وعن خبال الادعاء بفرية «الحلول» له في غيره من خلقه، من البشر والحيوان وغيرهما..

وهكذا بهذا الاسم المنزه بالمثل الأعلى، والأسماء الحسنى، صدقت عبادة «الله» في أقوال وأعمال المؤمنين به، المتبعين لشرائعه ومناسكه، الذين شقوا تحت أعلام طاعته وآياته طريقهم المضيء والمفتوح إلى النصر، ليقدموا عبر أزهى عصور البشر فوق هذه الأرض، وتحت رايات القرآن الكريم، ووراء أسوة النبي العظيم، هذا الإشراق المتجدد، والقدوة المتبعة، في استيعاب حقائق الدين القيم، وإقامة دعائم المجتمع المؤمن، وإحياء آيات الإسلام المنتصر.

أرواح الطبيعة:

أما بالنسبة إلى الكلمات المقابلة لكلمة «الله» في اللغات الأخرى، والتي تجري بها ألسنة الشعوب غير العربية، سواء في الأزمنة القديمة في عصور وثنيتها، أو في الأزمنة القديمة في عصور وثنيتها، أو في الأزمنة الحديثة بعد إيمان بعضها برسالات نزلت من الحق باللسان العربي، وذلك مثل اللغات الهندية، والفارسية، واليونانية، واللاتينية واللغات الأوربية المعاصرة، فإنها تنزل كثيرًا في مستوى دلالة كلماتها على «الآلهة» أو «الله» المعبود، عن هذا المستوى الذي ارتفعت وارتقت إليه العربية الفصحى في تنزيهها اللغوي والمعنوي واليقيني للإله الواحد الأحد، عن التجسيم والتحديد والحلول..

لقد اتفقت طبيعة هذه اللغات غير العربية، وغير المبينة، وهي تنشأ في ظلماتها وظنونها، وتتكاثر وتتقرض، تحت مستوى أن ينزل بها كتاب من الله، أو يظهر بها رسول من الله – على إيمان شعوبها في غيابات الأوهام والأساطير بأن يسمونه «أرواح الطبيعة» ليس إلا القوى الخارقة الجديرة بالعبادة في هذا الوجود، أي أنها هي «الآلهة» التي تتوزع اختصاصاتها، وتتنوع قدراتها، في هذا الكون، بما يوجب على كل شعب من هذه

الشعوب – بمستوى أساطيره وأوهام كهانه – أن يعبدها وحدها، وأن يقدم القرابين تحت وصاية الكهان إليها، وأن يقيم لهذا الأعياد والهياكل، وأن يتخيل لها الصور وينحت التماثيل!

وهكذا ظهر في الهند برهمن، أو بريم نمان، أو الروح الأعلى، والذي يرى البراهمة أنه الروح الأكبر بين كل أرواح الطبيعة المحيطة بهم، وانه لذلك هو الذي يهب الحياة لكل شيء من البشر والحيوان والنبات بحلوله فيها، حتى في أجسام الحيات السامة والجرذان والصراصير التي يحرمون قتلها.. لأن برهمن قد حل بروحه الأعلى فيها!

بمثل هذا الاعتقاد الوهمي اتسع في الهند وما حولها مذهب عبادة «أرواح الطبيعة» المسمى : Animism . وظهر كذلك في إيران أي فارس القديمة على يد زرادشت في القرن السابع قبل الميلاد ليكون أساس «المجوسية» بها فيما توجهت إليه من تقديس النار، ومن عبادة «روح النهار» باسم «أهورا مزدا» إله النور والخير، وكذلك عبادة «روح الليل» معه باسم «أهريمان» إله الظلام والشر..!!

وفي زمن مقارب لهذه المجوسية الثنوية الفارسية في عبادة روح النهار وروح الليل، ظهر على أرض اليونان، مع توسع في الخيال ونسج الأساطير عدد كبير من أرواح الطبيعة المعبودة في صورة أسرة من الآلهة العابثة الماجنة المستكبرة يقودها أيضًا «روح النهار» المسمى زيوس Zeus ، والذي جعلوه رب كل أربابهم، وإن كان هو الابن لأحد آلهتهم الأولى كرونوس Kronos أي «روح الزمن» وذلك لأنهم في صناعتهم لآلهتهم بحسب أهوائهم، وتأجج شهواتهم، فضلوا الزمن المحدود في «النهار» أو زيوس على الزمن غير المحدود في كرونوس أو «الزمان»، وذلك لأنهم في النهار، وكما عاشوه فوق الأوليمب الوثلوج، وتحت الضباب والظلام، عشقوا

حياتهم اللاهية، وأعيادهم الصاخبة، يستمتعون بمباريات السفسطة والتفلسف، وملاحقات المرأة والخمر، وكلما انتابهم الشعور بمأساتهم بين الضياع والعنف عكسوا هذا الضياع عن المسيرة السوية للبشر بهذا «الثغناء» والصراخ الحزين على المسرح الوهمي، الذي اعترفوا على خشبته بنقائصهم فبكوا له ، وضحكوا منها، وحيث وجدوا توازنهم التاريخي بهذا الضياع الجديد، زاعمين، بما أقاموه من حضارة الخمر، ومسرح الثغاء، وتراث الأساطير، أنهم «أبناء هيلين» من نسل الآلهة .. المتفوقين على فيرهم من الشعوب الأوربية ، وعلى من حولهم من الشعوب الأخرى!!

في هذا اللهو المأساوي صنع اليونان بخيالهم المخمور أكثر الآلهة عددًا من أرواح الطبيعة التي عبدوا مسراتها، وفزعوا من مخاطرها. فتحت زعامة زيوس أو «النهار» عرفوا Apollo أبولو الذي تعددت الآراء في خواصه، والذي يؤكد أكثر من كتبوا من الأوربيين عن آلهة اليونان أنه كان يمثل في بنوته لأبيه «النهار» روح «المراعي»..

ومن هذه الآلهة اليونانية أيضًا، وهي من آثار لهو هذا الشعب الذي لم يستوعب شيئًا نافعًا له من حضارات العرب القديمة الزاهرة على أرض مصر وكنعان وبابل، الإله دينوسيس Dionysis الذي يمثل «روح الربيع» حاملاً إلى الذين صنعوه ليسقطوا في حبائله هذا الفرح المخمور، المنجذب للشهوات والمتاع، وحتى يتم «الحفظ » صنعوا له رفيقه وتوأمه ياخوس Bakchos إله الخمر والذي يمثل مع «روح الربيع».. «روح الكروم» .. التي يعصرونها خمرًا .. ولعبًا!

وأما في بلاد الرومان المتاخمة لليونان فقد ظهر في اختيار آلهتها نفس المذهب المنجذب إلى عبادة «أرواح الطبيعة» وعلى نفس النمط الهندي، والفارسي، واليوناني، فكان كبير آلهتها هو جوبيتر Gupiter الذي

يعني إله الخصب والأمطار، والذي يمثل روح كوكب المشترى، أكبر كواكب المجموعة الشمسية، وإلى جانب هذه العبادة للخصب لم ينس الرومان القدماء في مزاجهم العدواني أن يجعلوا من روح كوكب المريخ أو Mars إلههم للحرب والغزو والسطو، وأن يجعلوا من روح الكوكب نبتون Neptune في هذه المجموعة الشمسية إله البحار..

كذلك فإن الرومان الغزاة القساة عبر تاريخهم الدموي القديم لم ينسوا مع الطابع الهندي الفارسي اليوناني في وراثاتهم وخصائصهم – أن يخترعوا إلهة لشهواتهم، ولمتاع حياتهم الطبقية الوحشية، فكانت هي روح الكوكب الزهرة، أو فينوس Venus ، التي استنزلوها من سمائها وعليائها، ليدنسوا ذكرها، ويطفئوا انعكاسات نورها وهي أجمل كواكب الصباح والمساء، وهم يجعلونها معبودتهم لحساب الجمال.. والحب.. وكذلك العشق الإباحي .. والجنس !!

وفي نفس الزمن على وجه التقريب، وقبل أن تضيء المسيحية على وجه أوربا الشهواني الأسطوري المعتم – كان الإنجليز السكسون، أبناء عم اليونان والرومان، يعبدون روح الغابات الكثيفة جودن وأساطيره تحت اسم God .. فلما أن ظهرت المسيحية عجزت هذه اللغات غير العربية كلها عن أن تجد أو تعي الكلمة الصحيحة الدالة على الله الحق في دعوة المسيح، ورسالات رسل الله من قبله. وعلى هذا فقد بقيت كلمة God في الإنجليزية وكلمة Dieu في الفرنسية، على جانب كلمة Theo من بقايا كلمة Zeus لتحمل الدلالة غير المبينة، وغير الأمينة، على الله الحق الذي نزلت رسالاته وكتبه باسمه الحق.. ومن ذلك فهم لا يزالون يسمون علم اللاهوت ثيولوجي أو theology ، ويطلقون على الوحي بالإنجليزية كلمة ثيوبنيوستي أو كما هي في الحروف اللاتينية theopneusty ، وهكذا

فـإن كلمـة «ثيـو» أو theo القريبـة مـن «زيـوس» و «ديـو» تبقـى بمعنـى «السابقة» التي تعني : إلهي..!

وكـذلك حتـى بعـد ظهـور الإسـلام، وامتـداد الإشـراق العلمـي والحضاري والأخلاقي بشمسه الساطعة إلى أبعد مدى فوق الأرض، وبين شـعوبها، وفي صـميم تراثهـا، فـإن الأوربـيين وغيرهـم مـن الشـعوب غـير العربيـة، لم يسـتطيعوا بعجمـة ألسـنتهم، وأسـطورية قصصـهم القـديم، وتـاريخهم الغـابر، أن ينقلـوا عـن العربيـة كلمـة «الله» لغـة وفهمًـا، هـذه الكلمة التي لا يشيرون إليها، مع اللكنة في نطقها، إلا عند الحديث عن العرب ودينهم، بينما تبقى ألسنتهم حبيسة ما توارثوه من أساطيرهم، وما احتفظوا به وزادوا عله – مع وفرة المتاع والشذوذ فيه في عصر العلوم الآلية والتدميرية والترفيهية من حب المتاع، ومن شهوة الخمر والجنس والعنف، ومن هـذا الـذي لا يزالـون يتوارثونـه مـن دوافـع العـدوان القـديم علـى أرض العـرب، طمعًـا في مـواردهم، وحربًـا خفيـة وظـاهرة علـى مقومـات وحـدتهم وقوتهم، في الدين الحق، واللسان المبين.

الفصل الثالث

الاختلاف حول معاني العقل والأخلاق ودلالة ذلك على اختلاف مناهج التفكير

إن ظاهرة إجماع كل المفكرين ، سواء من أهل الفلسفة والظن، أو من أهل الدين واليقين – على أن المفهوم العام لكلمة «العقل» هو مصدر فكرهم وتفكرهم، وأداة إيمانهم أو تفلسفهم، مع اختلاف وتعارض وتناقض ثمرات هذه العقول البشرية في إيمانها، أو تفلسفها.. إن ظاهرة هذا الإجماع على نسبة كل نشاطات الفكر البشري في العالم، برغم هذا الخلاف الشديد بين الأفكار والمذاهب السائدة – إلى هذا الجهاز العجيب في أعلى الدماغ، وداخل المخ، يفرض علينا أن نتساءل: هل هو عقل واحد في طبيعة رؤيته وحساسيته، وفي نوع قدراته وبصيرته؟.. فكيف يقع منه مع وحدة كيانه وأجزائه وملكاته كل هذا الاختلاف في ثمرات أفكاره، وأنواع قراراته ، إلى حد التعارض.. بل والتناقض؟

لا شك – وبرؤية وحكم هذا العقل على هذا التعارض الدائب في الثمرات الفكرية للعقل البشري، أن هناك تعددًا – قد يكون في طبيعة المجتمع البشري متسقًا – في طريقة عمل العقول البشرية بقدر تعدد أنشطتها، وتباين ثمراتها. أي أن هناك اختلافات ظاهرة في مناهج تفكير العقل البشري تعدد بسببها ثمرات ومذاهب ومعتقدات هذا العقل، بقدر ما نرى مثلاً من هذا التعارض أو التناقض بين بعض هذه الفلسفات التي تعطل عمل العقل، لكي تعقل بتعطيله وتجميده عكس ما تعقله بتنشيطه وتحريره، كما هو سائد إلى اليوم في أكثر فلسفات الغناء واليوجا في الهند.. وبمثل ما تصر بعض الفلسفات الأخرى ذات الجذور الهندية على نسبة أوهامها، وأساطيرها، وما هو بعيد عن حركة الواقع في فلسفاتها وتجريداتها إلى محض العمل العقلي، كما أدعى ذلك كل فلاسفة اليونان، ومن سار وراء السراب في متاهاتهم من فلاسفة أوربا شرقيين وغربيين إلى اليوم.. وبقدر ما نرى كذلك أن الشعوب العربية التي تؤمن

باللّٰه الحق، والدين الحق، لا تزال تؤسس هذا الإنسان الذي يتعارض مع جميع الفلسفات الهندية واليونانية وغيرها، على هذا «العقل» السليم بفطرته، السوي في رؤيته وقدراته وبصيرته، ومجال نشاطه، وهو العقل الذي يصدق به برهانها على اللّٰه، ويصدق به تفكيرها في خلق اللّٰه، وتدبرها لآياته في كل حركة الحياة..

العقل المؤمن:

ونبدأ الآن في مجال الاستدلال على هذه الحقيقة بكلمة «العقل» في اللغة العربية، لغة الدين الحق، واليقين الكامل، فنجد أنها الكلمة الأقوى ارتباطًا مباشرًا بكلمة «اللّٰه» من حيث أنها تحمل كل سمات هذه «النعمة الكبرى» التي كرم اللّٰه بها الإنسان على كثير ممن خلق، وهي نعمة «العقل» الذي يهتدي به إليه، ويحمل الأمانة له بتقواه، وباليقين بلقائه، وبالعمل في طاعته.

بهذا العقل الذي يهتدي به العاقل إلى البرهان على اللّٰه، بالنظر السليم فيما حوله من الواقع المتحرك بآيات اللّٰه، وحكمة اللّٰه، ارتبطت الكلمة الدالة عليه في اللغة العربية، في لفظها ومعناها، وفي دلالتها وإشاراتها، بكل ما تنتهي إليه قدرات التفكير السليم، في منهجه وبصيرته، إلى الإيمان الصادق باللّٰه، والإسلام الخالص إليه.

والبداية في جذور هذه الكلمة في اللغة العربية – في مجالها الحسي قبل المجال الاصطلاحي – تنطلق في صميم الدلالة الحسية على الحركة والرؤية والاستهداء من الفعل: عقل البعير – يعقله بضم القاف، أي يمسكه بقيده حتى لا يضل عن صاحبه، وحتى يمسكه عند مرعاه الخصيب ليتزود منه لرحلته وحاجات حياته. ومن هذه الصورة الحسية التي تبدأ منها قوة الإحساس بالرحلة الدائبة في حياة العرب اليومية، والتي تعني

أهمية «ضبط الحركة من أجل تمام التحصيل» خرج وأضاء على أصوله السليمة هذا المعنى الاصطلاحي وبصيرته اليقظة، وفي واقعه المتحرك، على تمييز الحقائق، وظواهر السنن والقوانين العلمية، من كل ما يدور حوله، ثم إدراكها.. أي «عقلها».. بمعنى الإمساك الذهني بها، لكي يسجلها في واعيته وحافظته، وحتى يهتدي بها إلى السوي من مناهجه، والواضح من طرقه.

بهذا المفهوم الصحيح، والجلي، لسلامة الإدراك بالعقل للحقائق والعلوم والظواهر، من آفاق الواقع المتحرك بالحياة، ثم الاستهداء بهذه المدركات العلمية والصحيحة إلى هذا البرهان المتجدد في الواقع الحي والمتحرك على أن الله هو الخالق الواحد، والمنشئ المدبر لهذه الحياة- يثبت ويتأكد أن «العقل المؤمن» كما أدرك العرب بلغتهم، هو وحده العقل السوي، المعبر بإيمانه ومنهجه عن البدن الفطري السليم، وعن النفس المطمئنة، المحصنة بكمال قطرتها، ويقظة بصيرتها، بنشاط هذا العقل المؤمن، الذي يمضي بها على طريق الإيمان ، لتحقيق غايتها الإنسانية من ازدهار الرخاء والتقدم والعمران.

ويبلغ هذا المفهوم السليم لكلمة «العقل» في اللغة العربية ذروته من الجلاء والكمال والحق بنزول القرآن الكريم، وذلك حيث يرتبط صدق النظر في الأشياء، وصحة الإدراك لظواهرها، وقدرة الاهتداء إلى برهانها، بهذا «العقل» السوي الهادئ إلى الإيمان، والذي هو نعمة الله وحكمته حجته الظاهرة على هذا الإنسان حتى يؤمن، وفي هذا يقول تعالى عن اجتماع نعمته بعربية القرآن إلى نعمته بهذا العقل السوي الذي يهدي إلى الإيمان: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]

ويقول تعالى في أن آياته لا يخطئ برهانها عليه عقل العاقلين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4]

ويقول سبحانه وهو يجمع بين عقل العقلاء وعلم العلماء: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:43]

ويقول تعالى في تأكيد أن من لا يعقل لا يؤمن أي أن العقل السوي هو الذي يهدي إلى الإيمان: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10]

ويقول سبحانه في مثل هذا المعنى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100]

فأين هذا العقل «العاقل» للحقائق، المدرك للبرهان العلمي، المؤمن بالله الحق، كما هو في لفظه ومعناه في لغة العرب، وفي تطبيقات حياتهم طوال عصور الصحوة والإيمان، من هذه الكلمات الدالة في اللغات الأخرى غير العربية على معان بعيدة في جذورها اللغوية، وفي مناهجها الفكرية، عن مستوى هذا «العقل العربي» المستبين لبرهانه وإيمانه، أي بعيدة عن قدرتها على تقرير شهادة الواقع المحيط بها من حيث غنها تتخبط وتتردى في عزلة التفكير الفردي، والباطني، في مذاهب عدوانية، وفلسفات ظنية، لا تدرك سواها من ثمار تفكيرها التجريدي والاستبطاني لحركة الواقع، من نقطة ساكنة وبعيدة عن هذا الواقع!!

العقول المعطلة:

وفي انتقالنا إلى الكلمات المقابلة لكلمة «عقل» في اللغات الأخرى نكتشف من خلال صراعات شعوبها القديمة والمعاصرة، ومن خلال قصور هذه الشعوب عن الرهان الملزم بالإيمان، والهادي إلى الحق بمعنى «الله» وبمعنى الديني – أنها لا تزال معطلة بشهوات المتاع، والخمر، والعدوان، عن الرؤية بفطرتها، وعن الشهادة الصادقة على الواقع الحي المتحرك من حولها. وهكذا نجد أن أفلاطون في قمة فلاسفة اليونان يصف المنطق «الصوري» غير العلمي لهذا الفكر التفلسفي اليوناني بأنه – في عبارة يبسطها الفلاسفة المعاصرون – هو الاستعمال المعقول للكلمات في «التفكير».. أي : هو استعمال الكلمات، في كل اتجاهات الفلسفة وظنونها، في التفكير .. أي في صناعة التفكير!

من أجل ذلك، وفي برهان دامغ كانت كلمة «عقل» في اللغة اليونانية وهي nous لا تعني إلا «الحدس» أي «الظن» الذي اعتمدت الفلسفة اليونانية وغيرها على تنشيطه بتصوراتها، وتخيلاتها، وشطحاتها، بعيدًا عن اليقين العلمي، والصدق الواقعي، وهي تمضي بمتغيرات شطحاتها وأوهامها في العلوم الإنسانية حتى العصر الحديث، الذي تظهر فيه بأثوابها الجديدة ونفس مفاهيمها القديمة، برغم صلصلة العلوم الطبيعية وإنذاراتها من حولها، لكي تقدم هذه المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة التي تتصارع من حولها منافعها، وشهواتها، وقسرياتها، وهي ترقص رقصات المخمور المسعور على فوهة بركان من أسلحة الدمار العسكري، والاقتصادي، والنفسي، بعيدًا عن العيش المستقر المضيء بالأمن والإيمان، وبالمساواة وبالرخاء والسلام.

ومن أجل ذلك أيضًا بقيت الكلمات الدالة على العقل في اللغات الأوربية، على الرغم من عصر القدرات العلمية والصناعية، بعيدة عن قدرة

التعادل في مجال العلوم الإنسانية مع حركة العلوم الطبيعية، هذا التعادل الذي لا نجاة لأوربا وللعالم المحيط بها إذا لم تتوصل به إلى هذا الإيمان الذي يقود العلم، وحركة الصناعة، وأهداف التقنية أو التكنولوجيا، بعيدًا عن هذا التكرار المأساوي لعصر الرومان القديم بجنون أباطرته، وشراسة أطماعه، وأهوال صراعاته، وحتمية مصيره، وهو الانهيار والانقراض..

ففي اللغة الإنجليزية مثلاً نجد من الكلمات الدالة على العقل – بعيدًا عن العقل – هذه الكلمة التي لا تعني إلا مكان التفكير الباطني في دماغ الإنسان أي المخ أو الذهن وهي كلمة intellect والتي ترجع إلى الأصل اللاتيني وهو intellectus ومعناها أيضا الدماغ أو المخ أو الذهن، فهل هذه الكلمات التي قد تدل أحيانًا على الذكاء أو على الطبقة المتعلمة تعني «العقل» بمفهوم قدرات الهداية إلى الإدراك السليم، والطريق المستقيم، في العقل العربي.. بلغة العرب؟!

وكذلك أصبح من الكلمات الشائعة في دلالتها على العقل باللغة الإنجليزية كلمة mind التي لا تعني في جذور معناها اللغوي إلا «الذاكرة» أو الرغبة التي تحرك الذاكرة للتفكير، الأمر الذي يتفق مع منهج التفكير الاستبطاني الفردي للأوربيين جميعًا على النمط الهندي والفارسي، وذلك حيث يجلس المفكر للتفكير والتفلسف حول تفسير الحياة والكون، والتخطيط الظني لنظريات المذاهب والعلوم الإنسانية، في عزلته بجوار المدفأة، وبجوار كأس الخمر، في بيته المغلق، مسترجعًا من «ذاكرته» أجزاء الواقع الممزقة لكي يعيد تركيبها بلغته المبهمة، ومن ابعد نقطة عن هذا الواقع الذي ليس له في ذاكرته، وفي ظنونه وتصوراته، أي تماثل علمي.

هذه الكلمة mind والشائعة بين الإنجليزي للدلالة على «العقل» ترجع إلى المصدر اليوناني mainesthe بمعنى «يتذكر» وإلى مصدر جرماني انجلو سكسوني قديم يرجع بهذه الكلمة إلى مفهوم الذاكرة الخرافية منذ عهد الإله Mannus الأب الأسطوري القديم للقبائل الجرمانية.

وامتدادًا مع هذا الفراغ المعتم والمستمر في اللغات الأوربية من المفهوم العلمي والحيوي والفطري لكلمة «عقل» كما عرفها واستعملها العرب، أصبحت كلمة Concious ومعها أيضًا كلمة Conciousbess بمعنى الشعور وبالإضافة إلى كلمة Spirit بمعنى الروح أو النفس تعني كذلك إلى جانب معانيها الأخرى هذا المفهوم الاستبطاني لكلمة «عقل» دلالة على هذا النوع من التفكير المعزول عن الواقع، والمنفصل عن اليقين، والذي لا يعتمد في عزلته ووراء حجبه على غير الذكاء الغريزي في الكائن الحي، أو عمل الذاكرة داخل المخ، أو الاستدلال بعشوائية الشعور الشخصي، والهوى النفسي، على صحة ما يسمى تعسفًا بحكم العقل؟!

وبعد .. فهل من « المعقول» ببرهان العلم والإيمان في حياة الإنسان الفطري السوي أن تكون لهذه الكلمات الشاحبة، والمعتمة، والمبهمة، في اللغات الأوربية أية دلالة حقيقية على عقل علمي، قادر على البرهان، ومتوجه إلى الإيمان؟!!

الحق والقوة:

وفي مجال آخر يزيد من هذه القضية وضوحًا، ويؤكد أن العقول البشرية في واقع المجتمع الإنساني تتمايز بين الهدى والضلال، أي بين أمنها مع الصدق العلمي واضطرابها في التيه الفلسفي والظني، نشير إلى أن هذه العقول الأوربية المعطلة فوق جليدها، وتحت ضبابها، وداخل استبطانها،

عن إدراك البرهان على الإيمان، قد أمنعت في غيبة العقل والتيه عن الإيمان في استكثار أسباب الصراع في حياتها، والعبودية لشهواتها، عندما انطمست معالم «الحق» في كلمات لغتها، ودلالات معانيها، ليصبح الحق هو القوة، أو لتصبح القوة التي تفرض واقع العدوان، والاغتصاب، والترف، والشذوذ، والعنف.. هي الحق!

فأين هذا من معاني كلمة «الحق» المضيئة في اللغة العربية بمعاني القوة الغالبة للبغي والعدوان، والواقية من الترف والعنف والشذوذ، هذه الكلمة التي تعني في قولنا: حقَّ يحق بمعنى لزم يلزم.. والتي ترتفع بمعناها الذي لا يحد، بالنور الملزم، والبرهان المضيء، فيكون «الحق» هو «الله» الذي نلتزم أمام البرهان عليه بالهدى والإيمان، ويكون الحق أيضًا هو سنن الله وقوانينه التي لا تتبدل ولا تتحول في ملكوت السماوات والأرض، هذه القوانين التي نهتدي إليها بنعمة العقل، فيكون التزامنا العقلي والعلمي أمامها هو إيماننا اليقيني بالحق، الذي هو الله الحق، والدين الحق، ثم كل هذا الصحيح في جملته ومفرداته، وفي مدركاته ومحساته، مما نراه حولنا ملء السموات والأرض من هذا الحق.

فأين هذا من غلبة القوة على الحق، ومن ضياع الحق بالقوة، في دلالة كلمة right في اللغة الإنجليزية على كل من كلمة الحق، وكلمة اليد اليمنى إذا أضفنا إليها كلمة hand بمعنى يد، مما يكشف عن هذا التلازم بين القوة التي تبطش وبين المعنى المنطمس للحق الذي تفرضه هذه القوة..

ويزيد في تأكيد هذا التلازم بين القوة والحق في لغات الأوربيين العدوانية، الدنيوية، المعتمة، أن كلمة Fact التي تعني بالإنجليزية «الحقيقة الواقعة» أو «الأمر الواقع» لا تعني في غياب مفهوم «الحق الديني»

و «الحق الأخلاقي» أكثر من حقائق الأرقام والبيانات الإحصائية، ومن ذلك ما تجسدت به هذه الحقيقة الدنيوية المجردة في الأمر الواقع، الملموس باليد، في الكلمة المأخوذة من Fact وهي Factory بمعنى مصنع، وفي كلمة Factor بمعنى عامل، وكذلك كلمة Factitious بمعنى اصطناعي أو تصنعي..!

على أن الأعجب من ذلك فقدان معنى «الحق» في مفهوم «الحقيقة الواقعة» عندهم، أن كلمة Faction تعني الشغب والفتنة، وكلمة Factious تعني مشاغب أو مشاكس، كما أن كلمة Factionalism تعني النزعة الحزبية التي لا تتجه عندهم للدفاع عن «الحق» بل إلى طمس الحق بالقوة، قوة الصراع والمشاغبة والمشاكسة!!

وكذلك أيضًا في مثال من هذه اللغات الفاقدة الوعي إلا بما يمكن لمسه باليد واغتصابه بالعدوان نجد أن كلمة real بمعنى حقيقي وكلمة reality بمعنى الحقيقة لا تعنيان إلا الأمر المحس باللمس، والواقع الملموس باليد، ومن ذلك كلمة realistic أي الشخص الممدوح بأنه «واقعي» أي لا يعتقد بغير الواقع المحس الذي يمكن أن يلمسه بيده، ومن ذلك أيضًا في عمق الدلالة على أن «الحقيقة الملموسة» في اللغات الأوربية الشرهة هي «التملك» ولو بالاغتصاب أن الكلمة الأكثر حروفًا من أصر كلمة real أي حقيقي وهي realization تعني إلى جانب معنى الاستيعاب، أو الفهم، أو التحقق، هذا المعنى الأقرب إلى إحقاق الحقيقة الواقعية باللمس والتملك لكل ما هو أكثر حقيقة من الأموال والثروات وهو «عملية استبدال أموال عينية أكثر ثباتًا في الحقيقة الملموسة من أموال وممتلكات أخرى» !!

فهل هناك بعد ما هو أعجب من هذا القيد الثقيل على هذه «الحقيقة» المرهقة والمنطمسة من كثرة اللمس باليد في اللغات الأوربية... ؟!

وأليس هذا الارتباط بين «الحقيقة» واللمس باليد في حياة الصراع على الدنيوي فقط في حياة الشعوب الأوربية هو الذي يفسر كيف أنهم عاشوا أكثر عصورهم الوثنية يطلبون أن يلمسوا «الله» باليد حتى يؤمنوا به، فلما لم يتحقق ذلك لهم آمنوا بآلهة من «صنع أيديهم» وبأرواح الطبيعة في الأشياء المحيطة بهم. وحتى لما بلغت إليهم رسالة المسيح، واستقر بين أيديهم إنجيله، وارتفعت أمام أعينهم صوره، عاد أكثرهم في العصر الحديث إلى عزل الإيمان، والحق، والحب، والعدل، والإيثار، عن الحياة.. سواء لأن الله قد تكلم عنه المسيح لا يمكن لمسه باليد، ولذلك ألحد الشيوعيين.. أو لأن «المحبة.. والصفح.. والسلام..» كما جاءت بها دعوة المسيح تتعارض مع هذه «الحقيقة» التي تلمس باليد في الأموال، والمتاع، والخمر، والشذوذ والعنف.. ولذلك «تعلمن» الغربيون، أي آمنوا بالعلم وحده في أضيق حدوده، ومن ثم أطلقوا العنان – بعد أن هجروا الكنائس – لشعارهم العدواني الروماني القديم: «الحق هو القوة»..!!

الأخلاق والقيم:

وعندما ننتقل إلى هذه الأثواب من السجايا التي تتواءم في سلوك الإنسان مع الإيمان أو الإلحاد، ومع الحق أو الباطل، ومع العقل أو الهوى، نجد في الدلالات اللغوية هذا الفارق الكبير بين كلمتي : خلق وأخلاق، والمعاني المشرقة منهما، والدائرة حولهما في اللغة العربية، وبين الكلمات الأخرى المقابلة لها بإبهامها، وعتامها، وإخلادها بأوهامها وشتاتها إلى الأرض، في اللغات الأوربية..

إن كلمة «خلق» تعني في اللغة العربية: السجية، والطبع، وهي بهذا المعنى الذي تخرج به من تشابهمها مع كلمة «الخلق» أي النشأة بتقدير الخالق، ومع كلمة «الخلقة» أي الفطرة، إنما تعبر في كمال اللغة العربية ودقة اشتقاقاتها عن هذا الارتباط والتلازم بين نشأة الإنسان بالخلق والطباع، أي بأفضل وأطهر أنواع السلوك الذي يتواءم مع العقل، ومع الحق، ومع الإيمان، ولذلك كانت كلمة «الخلق» و «الأخلاق» تعني بمعناها العام ومن غير تخصيص أنها : المروءة ، والدين، أي أنواع السلوك الإنساني التي يوجه إليها الدين ، والمروءة ، من الطهر والعفاف، والرحمة والصفح، والنجدة والإيثار..

والآن .. ومع اللغات الأوربية في هذا المجال الجديد، لنكتشف فاجعة التشتت في المعاني المقابلة لكلمة «أخلاق» و «خلق» بالعربية، نجد أول الهبوط والتردي عن المستوى القويم للسلوك الإنساني في كلمة ethics وأصلها اليوناني ethikos والتي تترجمها المعاجم العربية عن الإنجليزية بأنها: الفلسفة الأدبية أو «علم الأخلاق».. والحقيقة هي أنها في المعاجم الإنجليزية الأكثر دقة لا تعني في المفاهيم الأوربية أبعد من قواعد القيادة للآخرين، والتصرف معهم، والسلوك تجاههم لضمان المنفعة منهم!

كذلك فإن كلمة ethics على قمة الكلمات الدالة على علم السلوك الموصل إلى واقع نفع «ملموس باليد» تعني أيضًا: المبادئ الأدبية أو فلسفة الأدبيات بمفهوم المعنويات، كما تعني علم المعنويات والمجال المفتوح للتأليف فيه!!

أليست هذه «المعنويات» أو «الاستنتاجات الأدبية التهذيبية» أو «القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب» في مجال الأعمال الأدبية والفلسفات – مما تدل عليها كلمة moral بالإنجليزية ، والتي لا تتعدى

إشاعة الجو «المعنوي» لقيادة السلوك، وتحقيق الثقة في القيادة، و «الانضباط» المريح لها وعمها، من أجل بناء عالم « الحقائق الملموسة» في هذه الدنيا، داخل مجتمعات الصراع على المنافع الطبقية، والفردية – هي التأكيد للشعار الروماني القديم كما لا يزال سائدًا فوق أرجاء أوربا هو : الحق هو القوة. والقوة هي الحق ؟!!

ثم نأتي أخيرًا إلى كلمة أخرى من الكلمات التي جعلتها المعاجم الإنجليزية العربية من «المتشابه» في توهم الدلالة على كلمة أخلاق وخلق في اللغة العربية وهي كلمة character التي يفترضون أنها تعني سجية أو خلق، في حين أنهم يضيفون إلى جملة معانيها ما هو الصحيح في مفهوم اللغات والشعوب الأوربية وهو أنها تعني: النوع، والجنس، والسمة، والكتابة، والإشارة كما أنها تعني أيضًا: رقم، وحرف هجائي، وكما تعني الصيت السمعة، ،

وكما نرى في تحليل جذور المعاني الأصلية لهذه الكلمة فإنها مركبة من كلمتين : char بمعنى شغل يومي، أو بمعنى أحرق. و act بمعنى يتصرف، أو ينوب عن، أو يمثل، أو مشهد تمثيلي، أو قرار ، أو لائحة.. وعلى هذا فيكون المعنى الأقرب إلى هذا التركيب في كلمة character هو: التصرف، أو السلوك اليومي، كيفما كان هذا «السلوك) الذي يحقق «المنافع الملموسة» لصاحبه، ومن غير خسائر، أي كيفما كان هذا السلوك الذكي الذي يحقق لصاحبه «الصيت» أو السمعة الحسنة، كما هو أحد معني كلمة character، وكما هو شائع في الإنجليزية من استعمال عبارة a man of character بمعنى رجل حسن السمعة بهذا السلوك أو التصرف الذكي لتحقيق المنافع «الملموسة باليد» في تعامله مع الآخرين..!

ومن هنا دخلت هذه الصور السلوكية جميعها وهي تتسابق في صراعاتها، وعلى شهواتها ومنافعها، سوق التضارب على «قيمة» كل منها في «تحقيق» هذه الأهداف الدنيوية، الواقعية، الملموسة باليد، بقدر ما فيها من ذكاء التصرف، وفنون علم القيادة للآخرين، وقواعد الانضباط في هذه القيادة، وقدرات الاستخدام للتأثير الوهمي لعالم «الأدبيات» و «المعنويات» لضمان حسن السمعة بين ضحايا هذا الصراع الظاهر والمستتر..

بمعنى واضح فإن ما تعنيه اللغة العربية من الأخلاق الثابتة على مكارمها، والتي لا يطرأ عليها التبدل ..، أو تغير القيمة، مهما تغيرت العصور وأشكال الحكم – ليس له مقابل في أنواع التصرف والسلوك الذكي في حياة الأوربيين النفعية، والآنية، والدنيوية، إذ أن هذه التصرفات والسلوكيات قابلة دائمًا للتغير في قيمتها، بحسب تغير العصور، وأشكال الحكم، وهي في تغيرها ترتبط دائمًا بهذه الأهداف النفعية، والآنية، والدنيوية، الثابتة في حياة الأوربيين.

وهكذا نستطيع أن تفسر كيف أن ما كان حسنًا من أنواع السلوك تجاه المرأة، والعبيد، والفلاحين والحرفيين، في أيام اليونان الأوائل أخذ يتغير في «قيمته» باتجاه صور أخرى من السلوك نحو نفس الأهداف العدوانية الاستمتاعية الصراعية تحت حكم الأباطرة والقياصرة، كما تغير بعد ذلك نحو نفس الأهداف في عصر النبلاء وظهور الطبقة المتوسطة، ثم تغير بعد ذلك في عصر الظهور المتأخر للقوميات في أوربا، ثم عاد فتغير أخيرًا في عصر الثورات الاجتماعية والمذاهب الاجتماعية التي تتصارع اليوم تحت شعارات و«قيم» دائبة التغير، وحيث أصبحنا نرى المرأة التي أصبحت الآن بعد الامتهان الصريح لها على أيام اليونان الأوائل رئيسة حكومة، ووزيرة، وعالمة، وكاتبة، ومتساوية مع

الرجل في جميع حقوق العمل والحياة – لا تزال في حكم الأمر الواقع في قبضة الامتهان والابتذال والرق البشع لحساب الرجل القاسي، والشهواني المدلس، وكذلك فإن جميع العبيد تحرروا، كما تحرر الفلاحون والعمال، من أجل أن يحملوا في عالم «القيم» المعاصرة.. القيم غير الإنسانية بطابع العدوان الروماني الظالم القديم.. أوزار وأثقال عبودية أبشع مما كانوا عليه في العبوديات السافرة في العصور القديمة.. عبودية «الأحرار» الذين قتلهم الانهيار النفسي، والقهر الاجتماعي، والانفصام العائلي، والصراع الوحشي على فتات موائد القياصرة الجدد، أفرادًا، أو أحزابًا، أو طبقات.. حتى إذا ما اخترمهم الموت، الذي ماتوه من قبل، سقطوا على وجوههم، ولفظوا أنفاسهم، ووطئتهم الأقدام، ولم يبك عليهم أحد..!

أما الذي يثير أعظم الأسى، وأبلغ الحزن، مع تفاؤل أعظم بالمستقبل القريب عبر صحوة المسلمين المعاصرة، فهو هذه المحاولات المستمرة من دعاة الفكر والحياة «والقيم» الأوربية للضرب بمعاولهم الكلية في دعائم «الأخلاق» الدينية الثابتة، حتى لقد راجت كلمة «القيم» في موضع كلمة «الأخلاق».. وسادت في بعض أوساط المثقفين وبخاصة بين الشيوعيين هذه المفتريات المنهوكة القوى للادعاء بإمكان الجمع – بمفهوم التطور التاريخي – بين ثبات الأخلاق الإسلامية وتخلخل «القيم» الشيوعية الإلحادية.. ولكن لماذا لم تتغير بمفهوم هذا التطور التاريخي درجة غليان الماء، ولا سرعة الضوء، ولا حركة الأفلاك، ولا نظام الذرة؟ ... إنهم لا يجيبون .. وهم كذلك لا يفهمون.. وكيف يفهمون – ما لم يستكمل المسلمون فوق أرضهم العربية وبامتدادها صحوتهم، ووحدتهم – كيف يفهمون أن الأخلاق الإسلامية ثابتة بيقين العلم، وبرهان التطبيق،

ثبات شروق الشمس من مشرقها ، ومطالع الكواكب والنجوم من أفلاكها..

التقويم .. والتقييم:

وامتدادًا لهذه المفتريات الشيوعية الشرقية، والغوايات الاحتوائية الغربية، يقع التناقض في حياة المسلمين الفكرية والاعتقادية بين الصحوة والغفوة، وهم يكادون يهجرون القرآن، ويستسلمون لما يراد بهم من الإجهاز على اللغة العربية الفصحى، لغة الإيمان، ولسان التدبر لهذا القرآن. وينسون بذلك بل وكأنهم يتبلدون أمام هذا النذير المدوي أمام أعينهم، وملء أسماعهم ، منذ سنة 1978 عندما تمكن الاتحاد السوفييتي من التسرب الشيوعي إلى أفغانستان فأقام أشقى حكومة شيوعية في بلد مسلم، وعندما دبت الحياة في الأفغانيين فقاوموا هذا التخريب لحياتهم، والتفويض لمقوماتهم، فلجأ الاتحاد السوفييتي إلى المغامرة بالغزو السافر لهذا الشعب المستضعف على كثرة عدده، هذا الغزو الذي أثار ثائرة الغرب على مواقع نفوذه، وأفزعه أن تقع خيرات وموارد هذه المواقع في أيدي الشيوعيين.. منافسيه على هدف السيطرة على كل العالم.. !

هذا الغزو الوحشي ، الذي ظهرت به للعالم أنياب الدب الروسي القيصري ، الشيوعي الإلحادي، وهي تمزق جسد « فريسة» الأفغانية المستضعفة ، والذي تحركت لتمزيقه وابتلاعه عشرات الألوف من القوات السوفييتية برًا وبحرًا في الأيام الأولى من يناير سنة 1980 ، مندفعة إلى جريمتها المعلنة أمام العالم، وأمام المسلمين ، بنشوة الفودكا ، وشهوة الاغتصاب، ونزوة الغرور.. فماذا يكون في ردود الفعل على المسلمين إذا لم يصروا على «استسلامهم» وتفرقهم بعد هذا العدوان الشرس، والتحدي المتصاعد؟

هل يتحركون على جميع الطرق الصحيحة المفتوحة أمامهم بإتباع المنهج الذي سار عليه أسلافهم؟.. هل مع هذا التحرك العاجل يسارعون إلى

استعادة مقوماتهم، بادئين باللغة الفصحى التي تردهم إلى تدبر كتاب الله إليهم؟!

هل يتحررون حقاً من خيال الفكر الشيوعي المستورد، ومن غواية الفكر الاحتوائي الغربي المتسرب، عائدين إلى ذاتهم، وحقيقتهم، بالعودة إلى الثابت من أخلاق الدين، وسجايا المؤمنين؟!

هل يفطن المسلمون حقًا – كما نؤمن بقرب ذلك – أن الأخلاق بمفهومها في كتاب الله، وفي دينهم ولغتهم أبقى وأهدى لهم من كلمة «القيم» الوافدة بمفهومها الشائع والمتغير في لغات الشرق والغرب؟!

هل يرجع هؤلاء الخراصون باللغة عن إشاعة غير الصحيح في اشتقاق بعض الكلمات، وفي تركيب بعض المركبات، وفي الترجمة الحرفية عن اللغات الأجنبية للناشر والغريب من بعض المصطلحات؟!

هل يثوبون إلى رشدهم، ويعدلون عن وهمهم ، حبًا في الإسلام، وحفظًا للعربية التي يحفظها الله بحفظ القرآن، فتراهم إن شاء الله يقولون الصحيح لكلمة «تقييم» وهو «تقويم»، والصحيح لكلمات ومصطلحات ومركبات أخرى كثيرة – ليس هنا مجال إحصائها – سوف يظهر الصواب في نطقها واشتقاقها وتركيبها في ضوء «التقويم » السليم لهذه البداية، وبالعزم الأكيد على «تقويم» أخطائنا اللغوية، لأن هذا هو المنطلق، وهو الطريق للحفاظ على شروق الحقيقة الإسلامية، وخصائص «الذات العربية» لشعوبنا التي تواجه اليوم مع تباشير صحوتها إلى مقوماتها، ودعمها لهذه المقومات ، أشرس وأقوى التحديات لبقائها ونمائها..

نعم .. إن هذا التمادي في استعمال اللفظ الخاطئ وهو «التقييم» بمعنى الحكم على القيمة والتقدير لها، بدلاً من اللفظ الصحيح وهو «التقويم» هو في ظاهره وباطنه شعار يرفعه المستعجمة باللغة لتقويض مبدأ «التقويم» السليم بمعنييه الثابتين في حياة المسلمين المتبعين غير المبتدعين، وهما «التقويم» بمعنى الحكم على الأشياء أو الأمور، و«تقدير» قيمتها ، ودرجة صلاحها، ثم «التقويم» بمعنى التصحيح والعدل للمعوج منها، والردع والإصلاح للفاسد بها ، وذلك بعد أن تم «تقويم » قيمته، وتقدير درجة حاجته إلى الاعتدال عن هوجه ، والصلاح بعد فساده..

ومع هذا الجهد الاستهوائي والحثيث في تيار « العامية » وأمراضها، باتجاه تقويض الفصحى وطمس معالمها، أي لتفويض مبدأ «التقويم» في سلامة كلمات اللغة العربية، المتسقة مع سلامة معانيها، يستمر هذا الاستمراء لشيوع استعمال هذا اللفظ العامي العليل «التقييم» ليتحقق بذلك مناخ التقارب مع شيوع استعمال كلمة «القيم» بدلالاتها القابلة للتغير مع تغير الظروف ، والأمكنة ، والعصور، كما هو الحال في تغير هذه «القيم» مع متغيرات الصراع والاستمتاع في مذاهب الحياة الأوربية، ولغاتها، منذ عصور اليونان الأوائل، في الوقت الذي تشتد فيه حاجة المسلمين والشعوب العربية إلى الحفاظ القوي والواضح لمعنى «الثبات» لما أوصاهم به الدين الحق في كل رسالاته من مكارم «الأخلاق» كما جاءت بها اللغة العربية، وكما انتظمت من حولها من غير خلاف على «المعروف» و «المنكر» من هذه الأخلاق، وكما يتجلى هذا الثبات المؤنس لذوي القلوب المؤمنة، والرحيمة، والسمحة، في نور القرآن الذي لا يأفل، ومع شمس الإسلام التي لا تغيب.

الخطأ الظالم:

وحتى يتبين مدى الخطأ الظالم في تيار هذه «العامية» اللاهية الواهية، نرجع أولاً إلى هذه القواميس والمعاجم اللغوية، كما نجدها باقية بين أيدينا إلى اليوم، حجة الأسلاف علينا، ونعمة التراث في تذكيرنا، على الرغم من أن واضعي هذه المعاجم من الأعاجم، الذين لم تمنعهم أمانة العلم، وهم ينقلون الصحيح عن معلميهم من العرب، ويحتفظون به كما هو عن روائهم ومصادرهم – عن هذه الدقة في النقل، وعن هذا الجمع النشط لكل المروي، لكي يحفظوه لمن يعيه، ولمن ينتفع به وهو يجتهد في استخلاص المزيد من الفقه والاجتهاد في علوم الدين واللغة في ضوئه..

إننا بالرجوع إلى هذه المعاجم بحثًا عن كلمة «التقييم»، وطلبًا للحقيقة العريقة في معاني وجذور كلمة «التقويم» سنجد في إجابات هذه المعاجم الأمينة مصداق رأينا، ومصباح حجتنا، على هؤلاء المتعالمين المتفقهين، الغرباء بعجمة قلوبهم وألسنتهم عن سلائق العربية الفصحى، والمفتقدين في أهواء ابتداعهم، وفتنة معاجزتهم، لسلامة الحس لهذا الارتباط المكين، والمقدس، في حكمة الله، بين اللغة الفصحى والدين الحق. وهكذا في القاموس المحيط للفيروز ابادي الشيرازي، وهو أصيل في نسبته للعجم مثل سيبويه وابن جنى وغيرهما – نجده يقول في المعنى القويم لكلمة «التقويم» بعيدًا عن البدعة العامية في «التقييم»:

«والقيمة بالكسر واحدة القيم، وماله قيمة إذا لم يدم على شيء، و«قوَّمت» السلعة واستقمتها «ثمنتها». واستقام اعتدل . وقومته عدلته، فهو «قويم» ومستقيم.. ».

«التقويم» إذن – وهو اللفظ الصحيح- مرتبط بمعنيين متكاملين حول أساس التقدير والعدل، فمنه التثمين للشيء، أي «التقدير» لحقيقة ما يساويه أو ما يدل عليه، ومعه مما يتكامل معه هذا «التصويب» للخطأ في التقدير، و«العدل» للميل والاعوجاج، لتمضي هذه الأشياء والأمور بعد «تقويمها» أي تقديرها، وبعد «تقويمها» مرة أخرى أي تصويبها وعدلها- على طريق «الاستقامة» بالعدل، كما جاء بذلك أمر الله بالدين الحق، وكما حفظت هذا المعنى القويم بذلك لغة القرآن الفصحى، بما أوحاه الله في «خصائصها» وملكاتها من البيان عن الحق، ومن المواجهة بهذا الحق للباطل..

كذلك فإنه في معجم آخر أكثر تداولاً في مصر في العصر الحديث، في الأزهر، ومدارس المعلمين بأنواعها، ومدارس وزارة المعارف قبل أن تصبح وزارة التربية والتعليم، وهو – «مختار الصحاح» الذي جمعه العالم اللغوي المحقق محمد بن بكر بن عبد القادر الرازي، من علماء الأعاجم أيضًا، وقد تولى ضبطه وعنى بترتيبه عدد من أجلاء علماء اللغة في مصر، وقد جاء فيه حول كلمة «التقويم» ما يأتي:

« القيمة واحدة القيم. و«قوَّم» السلعة «تقويمًا». وأهل مكة يقولون «استقام» السلعة وهما بمعنى واحد. و«الاستقامة» الاعتدال. يقال «استقام» له الأمر. وقوله تعالى : (فاستقيموا إليه) أي: في التوجه إليه دون الآلهة. و«قوَّم» الشيء (0تقويمًا» فهو «قويم» أي مستقيم..» .

كذلك ونحن نحتج بحجة الله إلينا، وبحجة اللغة المبينة معنا، في بيان مدى هذا الخطأ الظالم، المتوالد بالكثير من طفيلياته في رواكد العامية وعجمتها، وفي هوى العجمة وابتداعها – نقول ثانيًا إن جميع علماء اللغة، وواضعي المعاجم اللغوية، جمعًا وضبطًا وترتيبًا، وأكثرهم من

الأعاجم، لا يمكن أن يكونوا سنداً لمثل هذا الباطل في اللغة، في مثل الكلمة «المائعة» الخطرة «تقييم» وأخواتها اللائي يدرجن كاسيات عاريات وراءها. ذلك أن هؤلاء مهما كان انتماؤهم إلى الفرس أو الهنود، وإلى الروم أو الترك، لا يقبلون وهم إيقاظ، وما لم تغلبهم العجمة عن إدراك الخطأ، أن ينتهكوا حرمة العلم المحفوظ بصدق الرواية، وبأمانة النقل، وحجة الإجماع، لهذه المعاجم التي اجتهدوا في جمعها، وارتحلوا إلى البوادي لسؤال الرواة عن غريبها، وقد جعلوا لنقل الصحيح من اللغة كما تركها السلف الصالح من العرب من صحابة الرسول «قدسية» هذا الذي ارتحلوا وراءه من جمع الصحيح من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهكذا فلو تصورنا خطأ أحدهم في رواية ما سمع، وفي حفظ ما جمع، فنقل الدخيل، أو جمع الساقط، فإننا لا نستطيع أن نتصور إجماع كل المعاجم، وكل الرواة لصحاح اللغة بها، على مثل هذا الساقط أو الدخيل، بمثل إجماعهم على الكلمات الصحاح بغير تعالم، ومن غير أن يميل أحد برأسه كبرًا وزهوًا.. وإلا فأين الدليل على أن الجامعين لصحاح اللغة في معاجمها لم «يجمعوا» على أن «التقويم» بمعناه الحق في لغة العرب وكتاب الله، لا يتطاول إليه مس بدعة «التقييم» وأخواتها، في أفواه من استراحوا للكبر بالخطأ، والظلم للصواب.. !؟

ومع ذلك فلو تصورنا أن أحدًا من هؤلاء العلماء على جهدهم في الجمع لتراث اللغة، والحفاظ بالأمانة على صحة النقل لصحاحها من مصادرها، قد اعتراه بعض ما اعترى هؤلاء المتأخرين من التردي بوهم العجمة في بدعة المعاجزة للغة القرآن، ومحنة المناجزة لأسوة الرسول، في حبة للعرب، وللعربية، التي هي لسان القرآن العظيم، ولسان أهل الجنة في منزلهم الكريم – فإن مثل هذا العالم المتجني، سواء أكان هو سيبويه أو

ابن جنى – ليس في حال الخطأ عفواً، أو الخطأ عمدًا، بالحجة على العرب الأوائل.. فينسب إليهم خطؤه، أو بالحجة على العرب المعاصرين.. ليأخذوا وراءه بخطئه، أو ليسيروا معه على هواه..!

لقد اجتهد الكثيرون من علماء الأعاجم، لغويين وجامعي حديث، في تمحيص مصادرهم حتى تصدق روايتهم عن العرب، الذين كانوا كما شاء الله بعد ظهور الإسلام وانتصاره وانتشاره: تلامذة علومهم، وصدقة جهادهم الطويل عن القرآن والسنة، وعن اللغة والدين. وهكذا عاشوا بشعار الأمانة في النقل، والجد في الطلب، والتمحيص للمصدر، كما عاش البخاري وهو يجمع صحيحه مثالاً حيًا على ذلك . وحتى كان من قول أي عمرو بن العلاء وهو من أعلام علماء اللغة العرب السابقين، وهو يرثى لحال هؤلاء المترحلين من الأعاجم وراء ما تركه العرب من جوامع الدين والحكمة والشعر، مع قلة ما وصل إليهم من ذلك ليتعلموا عليه، وليشرفوا بجمعه وحفظه، فهو يقول:

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا قلة، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير».. وهذا النص بذاته من أقوال أبي عمرو بن العلاء أورده ابن جنى في خصائصه، وهو يأسى معه على ما فقده المسلمون عربًا وعجمًا من حسنات هذا التراث.. لولا القرآن الكريم، وصحيح السنة، في حفاظهما على موازين الصحيح من الدين، والصحاح من اللغة..

وهنا نرجع إلى الكتاب المنير في مواجهة هذه «العامية» المستعلية بتفاهتها، والمدلة بخطئها وابتداعها، إذ هو الكتاب الحافظ للفصحى في لسان المؤمنين، والحسنى في حياة المتبعين غير المبتدعين، لنستخرج حجة الله على هؤلاء الواهمين العاثرين، وهي حجة قريبة ودامغة في قوله تعالى :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾.

فهل قال تعالى: في أحسن «تقييم» .. حاشا لله .. وتنزه كتاب الله ..؟!

وهل جاء هذا اللفظ المبتدع في أي آية أخرى من هذا الكتاب الكريم.. ؟!

ثم .. لو تصورنا ما لا يرضى الله عنه من تنكير وجه اللغة الفصحى بهذا التمادي في العامية الإبتداعية بتنكير الصحاح من كلماتها، وتسميم العذب من منابعها، فكيف نتصور فداحة ما ينتهي إليه حال المسلمين والعرب في العالم – وحسبهم ما هم فيه اليوم من البلاء المحدق، والتهديد الدائم – لو تم لهؤلاء المروجين من العلماء لكلمة «التقييم» وأخواتها، وطفيلياتها، ما قد يصبون إليه، أو يعتزمون الاسترسال فيه.. كيف يمكن أن ينتهي باستفحال هذه العامية في الألسنة، والعجمة في المعاني والقلوب- تدبر المسلمين للقرآن الكريم، وهم بالضرورة سوف ينتهون بالقياس على بدعة «تقييم» إلى أن يقولوا من كلمات صحيحة في آيات كريمة من آيات الكتاب الحكيم، وبالقياس إلى هذه البدعة والفتنة ما لا يرضى الله عنه ولا رسوله ولا المؤمنون..

إننا نسأل كيف سيقرءون قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: 24] ...؟!

وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[غافر: 64..... ؟!]

وقوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: 1... ؟!]

هل سيقرءون «المصور» فيقولون «المصير» ... ؟!

وهل سيقرؤون «كورت»فيقولون «كيرت».. وفي سورة «التكيير» .؟!

وهل سيقرؤون على هذا القياس كلمات كثيرة في كتاب الله بهذا «الخلط» الآثم الذي: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: 90]

وعلى هذا القياس، ومع «التدرج والتدريج والاستدراج» ستتحول مئات الكلمات العربية الفصحى عن مسارها في لغة الأمة العربية المعاصرة، وهي في أشد الحاجة إلى صحوتها بصحيح الدين، وصحاح الكلمات والمعاني في اللغة، وذلك حيث يقول الناس – فيما يرجو هؤلاء المرجفون – قياسًا على «تقييم»: تطيير بدلاً من «تطوير»، وتنيير بدلاً من «تنوير»؟ وتزيير بدلاً من «تزوير» .. وكلمات تهييم وتنييم وتعييم بدلاً من تهويم، وتنويم، وتعويم.. وكلمات تديل وتهييل وتعييل.. بدلاً من الكلمات الصحيحة في اللسان القويم : تدويل.. وتهويل.. وتعويل... !! ؟ .

ولكن الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين، يتم آياته في السورة التي تحدث فيها عن فضله ونعمته على الإنسان الذي خلقه في «أحسن تقويم» فهو تعالى يقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: 4- 6].

فهل يتوب حقًا أولئك المبتدعون العابثون، والمرجفون الأعجمون، عن التمادي في التوكأ على البدعة، والتبطن بالمعاجزة، متأثمين بعد الوقوع في الإثم عن استمرار هذا العدوان على الصحاح من كلمات هذه اللغة الكريمة التي نزل بها القرآن الكريم.. أم تراهم ينطحون الصخر، ويستافون الوهم، وهم يدرجون بالظن والهوى، مكبين على غلوائهم والشيطان في ظهورهم، مستكبرين عن نصح الناصحين، وسادرين في غيابه المبلسين.. والله سبحانه يقول في شأن الغافلين عن آياته، والمعاجزين

لبيناته، والسادرين عن ضرباته.. من الناكبين عن الطريق، والمتطاولين بالعقوق: إنه سبحانه يقول: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: 22]

بلى .. إن الأهدى هو من يمشي سويًا على صراط مستقيم.. ومن خلقه الله في أحسن تقويم . وصدق الله العظيم .. الذي له الخلق والأمر.. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع

شهادة الفلاسفة القدماء على الفلسفة أنها نقش على الماء وحلول إنساني في الآلهة

قبل هذه البداية المعروفة لنشأة الفلسفة اليونانية على عهد فلاسفتها الكبار سقراط و أفلاطون وأرسطو، عاش اليونانيون تلك المرحلة التي تأثروا فيها بالكثير من الأفكار والعلوم والصناعات التي استطاعوا تحصيلها من شعوب الحضارة العربية المجاورة لهم عن طريق البحر، في الشام ومصر وبابل، والتي حاول الإغريق في مرحلة الفهم والهضم، والاستيعاب والاستخلاص، أن يخضعوها لمنهجهم الخاص في التفكير، ولنزوعهم الآري الهندي لبناء مجتمع السادة المستمتعين فوق طبقة العبيد المسحوقين..!

هذه المرحلة التي سجلها تاريخ الفلسفة تحت عنوان «الفلاسفة قبل سقراط» شملت أعراض المخاض والولادة للفكر اليوناني بكل سماته وتوجهاته.

وقد اشتهر من هؤلاء الفلاسفة الأوائل نحو اثني عشر فيلسوفاً يبدءون من طاليس في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ومنهم فيثاغورث وأنكساجوراس في تلك المرحلة، وعلى الرغم من ظهور السفسطائيين الذين اشتغلوا بتعليم أبناء السادة فن «الخداع بالجدل» اللعب بالألفاظ، ظهر بتأثير العلوم العربية الأولى في تكوين الإغريق

اتجاه علمي وعملي جاد بين هؤلاء الفلاسفة بالقدر الذي تيسر لهم داخل عتام وجليد البيئة، وتحت مقتضيات خدمة الملوك، ومتابعة أهوائهم، في ترويج الأسطورة، وتنمية باطنية الفكر، وتعظيم هدف المتعة . فكان من هؤلاء القلة من بحثوا في عناصر الطبيعة المحسة والمشهودة ، وفي تركيب هذه العناصر، وفي محاولة حل بعض المشكلات العملية المفيدة للشعب اليوناني في الحياة الجادة مثل قياس بعد السفينة في البحر، وانتقال جيش عبر النهر ، وتحديد فصول السنة تحديداً دقيقاً...

على أن السفسطة ولعبة الخداع بالجدل، والتي كان سقراط أحد ثمراتها، ظلت الطبيعة السائدة لتربة الفكر اليوناني الفلسفي، كما ظلت هي الانعكاس الأكثر نشاطًا لظلام وجليد وجدب البيئة اليونانية على حركة هذا الفكر باتجاه الشتات، والعبث، والشك... حتى في إمكان المعرفة من طريق الفلسفة، وإلى حد تعريض هذه الفلسفة الحائرة والخائرة لأنياب السفسطة نفسها، ولعبتها الجدلية الخداعية، للسخرية منها، وتعرية أوهامها..!

النقش على الماء:

وفي كتاب كتاب ج. ف. ديسون « خطباء اليونان» ترجمة أمين سلامة، ومراجعة العالم المحقق الدكتور محمد صقر خفاجة، يقول ديسون من حديثه عن مرحلة من مراحل السفسطائيين الذين أعلنوا الشك في إمكان المعرفة الصحيحة، وأكدوا العجز عن اكتشاف هذا المنهج السليم للتفكير بمحض التفلسف القائم على الفروض الوهمية:

"... وفي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عندما فشل خيال الفلاسفة الأيونيين الطليق في حل لغز البقاء على أسس طبيعية قام بارمينيدس الفيلسوف الباحث في الأسباب والمسببات وأنكر احتمال المعرفة الصحيحة، كما أن زينون الأبلي، المنطقي، لزم الصمت إزاء ما انتهى إليه قرارهم من أن «المعرفة» ليست مستحيلة فحسب، بل لا يمكن تبرير الإسناد النحوي أيضًا إليها، فلا يمكنك أن تقول عن شيء آخر، أو إن الأشياء المتشابهة غير متشابهة، فأصاب الفلسفة من جراء ذلك العار، وانتشر الشك في ربوع العالم الأغريقي»!.. نلاحظ هنا أن المقصود بكلمة «المعرفة» هو الفلسفة.

ثم يقول ديسون أيضًا من حديثه عن هؤلاء السفسطائيين من آباء الفلسفة بوجه عام:

« بدأ جورجياس الليونتيني، أحد معاصري بروتاجوراس- وكسفسطائي من حيث الاعتقاد، بتقرير أنه لا يمكن معرفة أي شيء، وأن متابعة الفلسفة كالحرث في الرمال، أو النقش على الماء، لا تخرج منها بنتيجته»!!

المجتمع الإغريقي:

كانت نشأة الإغريق في بلادهم التي استقروا عليها عند بحر إيجه، بعد مراحل هجرتهم مع قوافل الشعوب والعشائر الهندو أوربية، بعيدة عن أن تبدأ بشيء أصيل من تراثها الهندي تملك به أي قدر من مقومات حضارة عقلية علمية إنسانية.. ولذلك فقد جمعوا في ترحالهم، وفي المراحل نحو استقرارهم الأول، وباتصالهم من طريق البحر بجيرانهم المتحضرين الأقوياء من العرب الكنعانيين والمصريين وغيرهم، كل ما استطاعوا جمعه ليقيموا به الأسس القابلة في مجتمعهم الهمجي العدواني الأول.

هذا المجتمع الإغريقي الأول وصفه بأقرب قدر من الصدق التاريخي المؤرخ الهولندي الدكتور هندريك فان لون في كتابه الشهير « قصة الجنس البشري» الذي ترجمته ونشرته مطابع الشعب، فمن هذا الوصف الذي يصور عناصر خلل الفلسفة اليونانية، وجنايتها على تخلف الأوربيين عصورًا طويلة وعلى عدوانيتهم حتى على أنفسهم بالإلحاد والخمر والجنس، والأساطير التي يروجونها باسم السياسة والاقتصاد العلم – يقول فان لون:

«لقد كانوا على جانب كبير من انحطاط الخلق، وكانوا يعيشون عيشة الخنازير، ويلقون بأجساد أعدائهم إلى الكلاب المتوحشة التي

كانت تحرس أغنامهم، وقلما كانوا يحترمون حقوق الشعوب الأخرى، فقد قتلوا أهالي شبه جزيرة اليونان الذين كانوا يعرفون باسم الفلاسجة، ونهبوا مزارعهم، واستولوا على ماشيتهم، وسبوا نساءهم وبناتهم»!

حقاً ما أقرب هذه الصورة البشعة في طرق انتزاع اليونان لهذه الأرض من أصحابها إلى الصورة البشعة نفسها، وبعد نحو خمسة وعشرين قرنًا، عندما انتزع حفدتهم من الإنجليز والفرنسيين والألمان أرض القارة الأمريكية من أصحابها «الهنود الحمر» فقتلوهم حتى الإبادة، ونهبوهم حتى المجاعة، وسبوا نساءهم وبناتهم حتى العار.. العار الوقتي والساحق للضحايا.. و العار الأبدي والتاريخي للمغتصبين المتوحشين.. حفدة اليونان.. ومدينة أفلاطون الفاضلة.. بلغة الهمجية والعار وأمراض الخمر!

ويقول فان لون عن هؤلاء الهمج بعد أن توصلوا إلى استعمال الأسلحة كما نقلوها من الأبجيين، الذين كانوا قد نقلوها قبلهم من بابل وطيبة، ثم بعد أن تجاسروا على ركوب البحر وبأيديهم هذه الأسلحة، وأخذوا يغزون بها المدن المجاورة لهم بعد تخريبها.. يقول عن طبيعة الحياة الطبقية الاستبدادية الاستمتاعية في مجتمعهم ومدنهم تحت حكم الطغاة، والسادة المتجبرين:

«ومن ثم فإن المدينة الإغريقية إذا لم يكن يحكمها ملك أو طاغية فقد كان يحكمها السادة لصالح طبقتهم. ولم يكن هذا ليتأتى إلا إذا توافر جيش جرار من العبيد يفوق المواطنين الأحرار عددًا بنسبة ستة أو خمسة إلى واحد وكان شأن العبيد شأن الآلة في المصنع الحديث حتى لقد كان يلقى بهم إلى الوحوش لأتفه الأسباب»!!

ثم يقول عن أكذوبة الديمقراطية الإغريقية الطبقية والاستبدادية وذلك في الصفحة 33 من الجزء الأول من هذا الكتاب، وبعد السطور السابقة:

«وكانت الديمقراطية الإغريقية لا تعترف إلا بطبقة واحدة من المواطنين خولت لها حق مناقشة مسائل الحكم جميعًا، وهذه الطبقة هي الأحرار السادة، فقد كانت كل مدينة إغريقية تتألف من عدد صغير من المواطنين الذين ولدوا أحرارا، وعدد كبير من العبيد، وأشتات من الأجانب الذين لم يكن الإغريق يبدون استعدادًا لمنحهم الحقوق المدنية»!!

الإغريق ومتاهة الأساطير:

في هذا المناخ الاستبدادي والاستمتاعي والهمجي انفجر مع الخمر، والعدوانية. ونزوة سرقة الشعوب لأسباب المتاع وراء الجيوش، وباسم الحروب ، سبل هذه الأساطير التي انطلقت تملأ حياتهم من تحت أقدام إلاه الربيع ديونسيوس، وإلاه الخمر باخوس، باتجاه التقديس الأعظم الكبير هذه الآلهة الوهمية «زيوس» الذي يتمثل فيه من أرواح الطبيعة بالمفهوم الهندي الآري «روح النهار» أي هذا الوقت المحدد من الزمن الملائم، الذي يستطيع فيه اليوناني فوق حطام عبيده، وبجوار مسروقات متاعه، أن يسكر ويفجر، وأن يهذي ويتبختر، دون رقيب أو حسيب..!!

وهكذا أظهرت هذه الأساطير الأولى في حياة هذا اليوناني الأول، حاملة من أشتات نفسه الممزقة باختلاطاتها، واطماعها، وعدوانيتها، أغرب هذه الأساطير عن مثل «السيكلوب» العملاق الذي يرمز إلى نوع من البشر لكل منهم عين واحدة في وسط رأسه، ومثل «القنطور» المحارب الذي له صدر ورأس يمسك بالرمح، وجسد وأرجل حصان متحد بهذا

المقاتل الذي تخلى عن أرجله ليكتسب، أو ليغتصب لنفسه من الحصان سرعته وقوة احتماله!!

كذلك فقد كان في رأس هذه الأساطير اليونانية التي تشبه في دوافعها غير السوية ومخلوقات الكابوس، أسطورتهم التي ترمز إلى مأساتهم حتى لتكاد تجسدها، والتي تجمهروا بها طويلًا وهم يحتفلون سكارى بأعياد الربيع والخمر حول هذا «الإنسان الماعزي»، الإنسان التاعس الذي احترف الغناء، والذي أظهرته الأساطير اليونانية في هيئة المخلوق الذي أعلاه بشر، وأسفله عنز، والذي سموه «المغْنى الماعزي» أو «المغْنى العنزي» واسمه باليونانية tragos-oidos..!!

وهكذا فيما سموه أعياد الربيع والخمر كان اليونان السادة يملأون الشوارع ويؤلفون المواكب، وقد لبسوا ملابس «المغْنى الماعزي»، ومضوا نحو كل ما ترميهم به نشواتهم من بدع، وإلى كل ما تلقي بهم فيه من أوزار يثغون ثغاء الماعز، هذا الثغاء البائس الذي كانت تعبر به تلك الجماهير الذاهلة بالشهوة والخمر، في لحظة صدق مأساوي، عن أقرب الأصوات الحيوانية المستضعفة دلالة على الذعر والاغتراب، وهو صوت هذه «العنز» عندما تضل الطريق عن رفاقها في القطيع، فتثغوا ثغاءها البالغ الجزع والألم والحزن، بما تكاد تتقطع له القلوب..!

هذا الإدراك الرمزي والأسطوري لفداحة المأساة التي عاشها اليونان الأوائل، خلال هذه الحياة الهمجية العدوانية الاستمتاعية، التي يتقلبون بها كل يوم على أسنة أوزارهم وخطيئاتهم، ويتخذون فيها بأوهام فلاسفتهم وسفسطائيهم- هو الذي جعلهم يختارون من كلمة «المغْنى الماعزي» أو العنزي Tragos Oidos كلمة Tragedy للدلالة في مسرحياته التي يلفقها خياله عن واقع لا يعيشه ويتمنى غيره – على «المأساة » أي هذه

الأحداث التي تنتهي في هذه القصص الملفقة بخاتمة مؤلمة، مثيرة، وفاجعة وكأنها تجمع في ضحايا هذه الأحداث الوهمية في المسرحية صورة هذه «العنز» المستضعفة عندما تفاجأ بانقطاعها عن رفاقها، وشتاتها بالتيه عنهم، فتثغوا ثغاءها الطويل، البالغ الجزع والألم والحزن، بما تكاد تنقطع له القلوب!!

وبالضرورة فقد وضعوا لهذه التجارة المسرحية الأخرى الخاصة بالإضحاك – إلى جانب هذه التجارة بالإيلام- كلمة كوموس Comos التي أصبحت «كوميدي»، والتي فتحت الطريق واسعة نحو صناعة «التمسخر» حيث يمكن التوهم، وخداع النفس، بأن ضحكات «الملهاة» يمكن أن تجفف دموع «المأساة» .. أو أن ساعات مدفوعة الثمن للعبث واالهو داخل المسرح الكوميدي يمكن أن تضمد جراح الفساد الأغلى ثمنًا، في حياة أي شعب، قد يصاب في حياة «العدوان والوهم» بالضلال البعيد عن حياة « السلام والعلم»..!!

وهكذا مضى اليونانيون الأوائل يضحكون من مأساتهم العقلية الفلسفية في مواكب «المغني العنزي» ومع حفلات الربيع والخمر، ليصدق عليهم في استعلائهم الآري، وفي تفلسفهم الخيالي، ما قاله عنهم أحد شعرائهم

«هزيود» فيما رواه أحمد أمين في كتابه «قصة الأدب في العالم» من أن اليونان الأوائل: «خلعوا صفات الإنسان على ألهتهم بعد أن حملوها نزواتهم، وبعد أن صنعوا فلسفة للكون تماشي تسلسل هذه الآلهة وتوزيع الاختصاص بينهم»!!

ويمضي أحمد أمين في هذا المعنى فيقول: «إذا كان الهنود يعتقدون بالحلول الإلهي في الكون، فإن اليونان اعتقدوا بالحلول الإنساني في الآلهة

. فالإنسان عندهم حال بكل شيء، حال بالآلهة، ثم حال بالطبيعة التي تصوروها تملك خصائص كل إنسان . وهكذا اتخذ اليونان من الإنسان محورًا للوجود كله، ومنبعًا له »..

هذا الحلول البشري بعد «التأله» بمعنى الاستعلاء على كل البشر باتشاح أثواب آلهة وهمية يخلعون عليها كل نزواتهم وهمجيتهم، كان مركز انفجار كل عوامل «المأساة» في حياة اليونان الأوائل .. هذه «المأساة» التي عبروا عنها جماعيًا وهم يثغون مخمورين ثغاء العنز الضالة عن الطريق، الجازعة من الاغتراب، المذهولة أمام هاوية الضياع، بعيدة عن الهدى.. والرفاق.. والأمل..!

فهل هذا هو ما يطلبه من العرب دعاة التفلسف وراء الأوربيين وأساتذتهم من اليونان؟.. هل هذه المأساة العقلية، التألهيه، الهمجية، الفلسفية، الوهمية، الانهيارية.. هي نفس ما يطلبونه لمواطنيهم العرب!؟ .. أم إنهم في حقيقة الأمر قد غفلوا تمامًا، بمثل هذا الهوى التفلسفي بغير علم، عن ثغاء الماعز.

وعن دلالته في مأساة حياة أصدقائهم من اليونان الأوائل..!؟

أفلاطون وجمهوريته:

وكنا قد أشرنا قبل إلى أن أفلاطون – كما جاء في الموسوعة الفلسفية المختصرة والتي ترجمها عن الإنجليزية فؤاد كامل وآخرين، ثم راجعها وأقرها د. زكي نجيب محمود- هو أول فيلسوف يوناني مارس البحث في الفلسفة بأتم المعاني التي تعنيها هذه الكلمة بالنسبة لجميع من سبقه من الفلاسفة، حتى سقراط الذي كان متأثرًا بمنهج السفسطائيين، فلننظر الآن إلى هذا المثال الأفضل للفلسفة اليونانية وهو

أفلاطون، ولنستعرض ذروة الأفضل من ثمرات ممارسته الفلسفية وهو «المدينة الفاضلة» أو «جمهورية أفلاطون» التي وضع فيها بفكرة الخيالي الفلسفي أسمى ما ارتفعت إليه أحلامه «الإنسانية» في هذه اليوتوبيا أو «اللا مكان» – باليونانية ow-topos - لتكون في ارتفاعه بمستوى آماله الإنسانية إلى حيث لا يوجد مكان في الأرض يتسع لها- أي لتكون منارة بعيدة الإشعاع الفكري، والخيالي لكل البش، وفوق كل الأمكنة والعصور، باتجاه ما هو الخير والعدل والأمن في خيال جميع المفكرين..!!

نعم.. سنستعرض- على طريقتنا من الإنجاز، ومن استخدام منهجنا العربي من مواجهة عقل القارئ والمستمع بالحجج الفاصلة والقاطعة ضد هذه الأوهام والغايات الخيالية التي يقوم عليها صرح هذه الجمهورية الوهمية اليوتوبية، وحتى نرى بوضوح على أي معراج يصعد، أو إلى أي هاوية يهوى.. فكر وعقل أفلاطون داخل هذا الصرح الوهمي.. الفلسفي!!

ونبدأ في ضوء ما جاء في «الموسوعة الفلسفية المختصرة» فنرى معها أن أفلاطون كان يرى في كلمة «مثال» أنها الصورة الأولى المرئية، ثم أصبح معناها «الصورة» بصفة عامة، وأنها اسم لذلك الشيء الواحد ذاته، الذي هو في ذاته كامل، وخالص، وخالد.. وإذن فهذه «المُثُل» التي اكتشفت بلا توقع – في عالم المعقولات- كانت هي نقطة الابتداء التي يبحث عنها أفلاطون ليضمن السداد في كل من الجانبين العملي والنظري، بل التي كان يبحث عنها لتكون نوعًا من «الدين» فقد عدها أفلاطون – أي هذه المثل – إلهية!!

وعلى هذا، وفي جو هذه القدسية التي تم افتراضها بغير حدود علمية، ولا برهان مقنع، وضع أفلاطون كتابه الذي تصور فيه «المدينة الفاضلة» أو «الجمهورية الفاضلة» على أساس قيام الحكومة الصالحة

لإرادتها من ملوك، وفلاسفة يعرفون قدسية «المثل» و «الصور»، وأن يكون حكم هؤلاء «مطلقا»، وليس مقيداً بالقوانين بالقوانين الجامدة..!

ثم نرفع الستار أمام القارئ عن عدد من هذه «الصور » المخزية، والخرافية، التي وضعها هذا الفيلسوف الذاهل عن عقله الفطري، وهو في حالة نشوة غير محدودة، بعد ان ارتدى ثوب «المغنّي الماعزي» الشهير، واحتفل كما يحب بإلاهي الربيع والخمر- وذلك حيث يقرر في جمهوريته الأكثر من شيوعية ومن إلحادية ومن قهرية واستبدادية بلغة العصر – أن الأمر في إنشاء هذه الجمهورية – المستحيل قيامها والحمد لله- سيؤدي إلى أن يكون بها – كما جاء في الموسوعة الفلسفة المختصرة- ثمة نساء «حاكمات» كما أنه سيكون معهم رجال «حاكمون»، وأن هؤلاء النسوة الحاكمات سيقمن على التدريب بالحكم «المثالي» في نظر أفلاطون وهن «عاريات» تمامًا، كالرجال سواء بسواء..!!

وتمضي هذه الموسوعة بخاتم مراجعة الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود فتحدثنا عن أن «نظام هذه الجمهورية الأفلاطونية سيلغي الحياة الأسرية بين هؤلاء الحكام «من الرجال والنساء» وذلك من أجل دعم «نظام اتفاقي» بينهما عماده «شيوعية الآباء والأبناء»!!.

إن العلاقة بين هؤلاء الحكام والحاكمات العراه ستكون كما أرادها أفلاطون حرة جسديًا من قيد «الزواج»، أي أنها تكون في هذه الشيوعية الجنسية –كما يظهر من هذا البيان الموجز- أقرب أو أقل شيوعية مما بين القطط والكلاب، أو مما بين الماعز والحميرمثلا .. فإذا أضيف إلى ذلك ما يشرطه أفلاطون في جمهوريته من «شيوع» الملكية في الأموال، فإن الطبقة الحاكمة ستذوب في نظرة في «اتحاد حاكم» ليست له مصلحة ذاتية يرعاها – لا في الأولاد ولا في الأموال- وبذلك لاتكون

رياسته بذلك موضع الشك عند المحكومين أبدًا ..!! أليس حدوث ذلك عجيب حقًا.. وبالغًا حد الإثارة والأسى برغم خرافيته؟!

ثم يمضي أفلاطون في شطحه بعد ذلك فيقرر – على هواه- حرمان أرباب الحرف من هذه الجمهورية المحكومة باتحاد «العراه» الذين هم أصحاب وصاحبات الحكم المطلق – من الحقوف السياسية، ذلك لأن أعمالهم من وجهة النظر الارستقراطية الأفلاطونية الفلسفية الاستبدادية – تعوقهم تمامًا وهم يسعون بها وراء الكسب اليومي، عن الاهتمام بالواجبات العليا الملقاه على عاتق المواطن «المثالي» الذي هو المحارب والسياسي، ولذلك استحق هؤلاء العمال هذه الزراية والاحتكار، والحرمان من حقوق المواطن في هذه الجمهورية التي لايمكن أن تكون!!

وأخيرًا.. وبرغم الانجاز، لأننا لا نقدم هنا دراسة عن الفلسفة الأفلاطونية، هذا هو أفلاطون، المثال الأفضل بين جميع فلاسفة اليونان في استخدام الفلسفة في أبحاثه بأقرب ماتصوره هذه الكلمة من معانيها، وحوافزها، وتطلعاتها، وراء المرئي والمسموع والمعلوم .. فهل كان يا ترى بهذه الجمهورية الشيوعية، القسرية النظام، العارية الحكام، المستبدة بطبقة الحاكمين فوق طبقة المحكومين، من الصناع والعاملين- هو الجد الأعلى في الفلسفة لكارل ماركس، وهو المصدر الفلسفي الخرافي لصورة الجنة الشيوعية، التي لازال يحلم بها الشيوعيون المعاصرون.. في المستقبل المجهول الذي لم يتحقق بعد.. لحفدة الشيوع والقسر والمتاع في فكر ذلك الأفلاطون!؟

أم كان أفلاطون في جمهوريته المشاعية هذه في النساء والأولاد والأموال، وبما تمادى به خياله من هذا الامتهان للمرأة اليونانية، ومن الإذلال لأنوثتها. ومن الابتذال لشرفها الفطري في أمومتها، وشرعية

أطفالها، هو المستجيب بالتصوير الفلسفي، اليوتوبي اللا مكاني، أي الذي لامكان له للتحقيق بشذوذه وجنونه فوق هذه الأرض.. لهذا الاعلا البذئ المماثل، الذي أعلنه خطيب اليونان «العظيم» ديموستين- كما جاء في كتاب ول ريورانت «حياة اليونان»- وهو يضع المرأة اليونانية في حجمها الضئيل والذليل- كما يتعامل معها أولئك الرجال الآلهة الفساق الحياة الآرية عند الهنود واليونان، وذلك حيث يقول:

«إننا نتخذ العاهرات» من النساء للذة، ونتخذ «الخليلات» للعناية بصحة أجسامنا، ونتخذ «الزوجات» ليلدنا لنا الأبناء الشرعيين»!!

وبذلك يكون أفلاطون أيضًا ومن الجانب اليوناني البحت، هو بهذه الجمهورية الخيالية المشاعية الجد الأعلى أيضًا لهؤلاء الشباب التعساء المسوسين، الذين يقيمون في هذا العصر – منطلقين من قلب أمريكا وأوربا غربًا وشرقًا- جمهوريتهم المشاعية الخيالية اللا مكانية، أو جمهوريتهم التي أصبحت الأفضل مما حولهم – على أنقاض هذه الحضارة الأوربية الفلسفية، الصراعية بين علومها وفلسفتها، والاستمتعية النفعية في ضجيج آلاتها وصرخاتها.. هذه الحضارة التي أخذت تنهار من كل جوانبها أمام أعينهم، وهم هؤلاء الشباب الذين مضوا في يأسهم، ومن أجل إيجاد المعادلة النفسية والشعورية مع أحزانهم، يتعاطون المخدرات، ويبتلعون عقار الهلوسة، والذين قرروا بعقوبة المأساة، ودون لقاء بينهم، أو خطب أو فلسفات عنهم، أن يهيموا على وجوههم في الأرض الواسعة، ليحققوا في «اللا مكان» المجهول أحلام سعادتهم الضائعة.. ليحققوا هذه الأحلام في الغيبوبة وليس العقل، وبعيدًا عن هذه الحياة، وليس في هذه الحياة، وحيث يعيشون جنتهم الموعودة لهم في ضباب هلوستهم . وملء حياتهم المشاعية، في هذه الجمهورية الوهمية وغير القسرية، بغي أموال أو ممتلكات، وبغير

زواج شرعي أو أبناء.. وكلما وجدوا في الأرض الواسعة شمسًا مشرقة، أو ماءً جاريًا، تعروا لها تمامًا، ونالوا من عطائهما.. ثم مضوا في سبيلهم. وكل ممتلكاتهم في حقيبة وراء ظهورهم... وكل الناس في بلادنا الطيبة، بلاد الدين الحق، والشمس المشرقة، والماء الجاري، يشيرون إليهم في رثاء.. وعطف.. وعجب.. ويقولون كلما سمعوا عنهم: هؤلاء هم «الهيبز» المحزقين ..أو «البيتلز» الخنافس .. بينما هؤلاء يهيمون في «اللا مكان» ولا يتوقفون .. إعلانًا صامتًا يجوب الآفاق، وآية من الله عن شقاء حضارتهم الفلسفية العدوانية، وقد أخذت بضربات الله وأوزارها تتداعى.. وتنهار. وهؤلاء الشباب الضحايا هم هباؤها في الهواء..!!

والآن مع أي اختيار من هذين الاختبارين نصنف فلسفة أفلاطون، أفضل فلاسفة اليونان، في أفضل فلاسفة اليونان، في أفضل تفلسفاته في «الجمهورية الفاضلة»..؟!

هل يكون هو الجد الأعلى للجنة الشيوعية الخرافية التي لا بارقة أمل في مثلها للشيوعيين المعاصري؟. أو هو الجد الأعلى لهذه الجنة الموعودة الأخرى في أحلام وهلوسات شباب الغرب الذين أخذوا يهجرون المكان إلى اللا مكان في مشاعية حياة بغير أموال، وبغير زواج، وبغير فلسفة، وبغير انتماء، وبغير أمل، وبغير طريق..!؟

أم أنه –أي أفلاطون- أفضل الفلاسفة استخدامًا للفلسفة- في نظر «الموسوعة المختصرة للفلسفة» التي راجعها فيلسوفنا الدكتور زكي نجيب محمود.. هو الجد الأعلى لهاتين الجنتين الرافيتين معًا.. جنة الشرق الشيوعي.. وجنة الغرب الرأسمالي!؟

لعله من الذوق أن نشرك معنا في الرأى صديقنا الفيلسوف زكي نجيب محمود، الذي كره للعرب أن يرجعوا إلى أصالتهم، فيرجعوا بذلك

إلى اعتقاد ثابت غير فلسفي، وإلى الأمل في جنة من المحسات والملموسات التي لايحبها لهم، تمامًا كما لايحبها صديقه الفيلسوف اليوجي مصطفى محمود، الذي اعتذر عن رفضه «جنة المسلمين» كما يصفها القرآن الكريم بما فيها من أشياء عينية محددة بذاوتها، وملموسة بدلالتها، مثل أنهار الماء العذب، واللبن السائغ، والخمر التي لا تسكر، ومثل النخل والرمان، والياقوت والمرجان، لمن هم من المؤمنين على سرر متقابلين، وقد نزع الله ما في صدورهم من غل إخوانًا متحابين، وزوجهم بحور عين.. إنها جنة حقائق جلية.. بغير تفلسفات توهمية.. ولا شخوصات يوجية.. إن هذا عنده لا يطاق. أي أنه لا يطيق هذه الجنة.. لأنه بهذا الوهم الفلسفي لايحيها وبهذا الغياب اليوجي لا يحسن أن يرتقي إليها..!!

وحقًا – مرة أخرى- إنه لمن الذوق أن نشرك معنا الدكتور زكي نجيب محمود في الرأي حول أفلاطون. بعد أن وضحنا له بالحجة العلمية والإنسانية والتاريخية من هو هذا الأفلاطون، الذي هو مثله الأعلى لهذه الفلسفة التي يدعو إليها العرب بكل حماسته، وبكل العجلة من أمره، وقبل أن يتروى طويلًا في دعوتهم هذه إلى ما لا يستطيع الدفاع عنه في ضوء العقل والعلم، وعلى هدى ما تمخضت عنه «الفلسفة» من المآسي والأوهام، ومن الحرب على الإنسانية والأخلاق، واسلام والعدل، عبر كل مراحلها في التاريخ..!

ولعله من العجب العجاب أن يلح الدكتور زكي نجيب محمد على «العقل العربي» بالتفلسف، وهم لم يتبين بعد، وبأمانة العالم المنصف، ما لدى العرب في مقابل الفلسفة عند الهنود واليونان، من هذا اليقين بالحق، واليقين بالعلم، واليقين بالبرهان، في هذا الدين الحق الذي خصهم الله برسالاته منذ آدم ونوح، وحتى إبراهيم وإسماعيل، وموسى وعيسى

ومحمد.. هذا الدين الذي هم بمصادره الباقية إلى اليوم ملء تاريخهم، ومشرق أصالتهم، وفخر تراثهم.. هذا التراث الذي يعترف الدكتور زكي نجيب محمود صادقًا في كتبه أنه «لم ينتبه لدراسته إلا بعد أن فات أوانه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة يزدرد تراث آبائه ازدراد الملتفت العجلان»!! من مقدمة كتابه «تجديد الفكر العربي».

فكيف يحق للشيخ الفيلسوف زكي نجيب محمود أن يفتي للعقل العربي وهو الغريب عن تراثه؟ .. ثم كيف يفتي له بهذا الداء الذي أصيب به من هذه الفلسفة بعد أن تكيف بها عقله طيلة عمره، وقبل أن يملك من العلم بأصالته العربية ما يتيح له صحة الحكم على ما تردى بها فيه.. أي في هذه الفلسفة..!؟

ولكن أليست هذه هي الفلسفة.. يسقط في بحرانها من العرب من يستعجمون فلا يستبينون.. ومن يركضون بتساؤلاتهم عما وراء الطبيعة- بعيدًا عن الواقع وعن الحياة- فيذهلون عما حولهم وعما في أنفسهم، ويغرقون في الوهم بظاهرهم وباطنهم.. ومن أعماق الوهم ولججه يتقلبون ويصيحون.. ويكتبون ويتفلسفون!!

الفصل الخامس

وعندما أشرقت المسيحية على أوربا
حرمت الفلسفة لأنها ضد الواقع والحياة

ولما كان كل شئ من خطايا الفكر الفلسفي الأوربي المعاصر، اليوناني القديم، لايزال محوطًا بهذا التقديس الذي عرفته اوربا تجاه آلهتها وتماثيلها، عند هذه الفئة القليلة من المواطنين العرب الذين انعزلوا عن الحضارات الأوربية، الشرقية والغربية، من بواكير طفولتهم، فلم يعرفوا حنان الأمومة في تراثهم العربي الثري، ولم يرتشفوا رحيق الحياة العلمية الحرة من صدره، ولم ينشأوا النشأة السوية الثقافية على حجره- فقد رأينا أن نقدم لهؤلاء في كلمات لأحد الأوربيين المنصفين- على قلتهم- هذا الشاهد من تاريخ «المسيحية» عندما أشرقت لأول مرة من بلاد العرب، وبأقوال وأعمال دعاة مجاهدين مستشهدين من أبناء يعقوب، وآل عمران، وأبناء عم المسيح، على بلاد الفلسفة، وأرض الآلهة، ومنبت الطغاة الأوائل في اليونان، وإيطاليا، والإمبراطورية البيزنطية.. وكيف كان موقف هؤلاء العرب المؤمنين .. القديسين.. المبشرين بالمسيحية في أقرب حقائقها إلى دعوة المسيح- من الفلسفة والفلاسفة في أوربا.. أي في الأرض الزاخرة إلى اليوم.. بالفلسفة.. والإلحاد.. والطغيان.. أي.. بالفلاسفة.. والمتألهين.. والطغاة!

ومرة أخرى نعود إلى أقوال هذا المؤرخ الأوربي الهولندي: الدكتور هندريك فن لو، الذي توفرت له دوافع كثيرة للأنصاف في رؤيته لتاريخ الإنسان في كتابه «تاريخ الجنس البشري».. ففي هذا الكتاب وتحت عنوان «قيام الكنيسة» تناول في الجزء الأول من كتابه الذي أصدرته مطابع الشعب في سلسلة كتبها «كتاب الشعب» – تاريخ قيام الكنيسة الأوربية على أرض أوربا الغارقة في ظلمات أساطيرها وفلسفاتها، والممزقة الوجه والظهر تحت سياط آلهتها من البشر وقيا صرتها.. وننقل هنا الجانب الخاص بموقف المسيحية في أول شروقها على تلك الأرض المخضبة بدماء الضحايا، والغارقة بسمائها وأرضها في ظلمات الفلسفة والأساطير.. يقول

فـان لـون ابتـداء مـن حديثـه عـن الإمبراطـور البيزنطـي الـدموي الشـهير قسطنطين:

«كـان علـى عـرش الإمبراطوريـة الرومانيـة «قسـطنطين» الـذي كـان يطلـق عليـه أحيانًـا –ولا نـدري لـذلك سـببًا- اسـم قسـطنطين الأكـبر، وكـان وغـدًا غليظ القلـب لا يـرحم. غـير أن النـاس الـوادعين المسـالمين لم يكن لهم فسحة من الأمل في البقاء في خضم ذلك العصر الحافل بالكفاح المرير.

وكابد قسطنطين مر الحياة وحلوها في عهده الطويل المتقلب. فقد فكـر مـرة عنـدما أوشـك الأعـداء أن يوقعـوا بـه الهزيمـة، أن يجـرب سـلطان هذا الدين «الآسيوي» الجديد، الـذي كـان حـديث النـاس أجمعـين، ووعـد بأن يعتنق المسيحية إذا انتصر في الحرب القادمة، فحالفه النصر، ومن ثم اقتنع بسلطان إلاه المسيحيين، وقبل أن يعمد. وقد اعترف رسميًا منذ ذلك الوقت بالكنيسة المسيحية، ودعم ذلك مركز الدين الجديد تدعيمًا».

ويمضـي الـدكتور هنـدريك فـان لـون في بيانـه عـن مرحلـة المواجهـة الأولى بين المسيحية في أوربا وبين الفلسفة الهندية، وآلهتها وأوثانها فيقول:

«على أن المسيحين ظلوا فئة قليلة من الشعب لا تزيد على 5٪ أو 6٪ من مجموعة، فلم يجدوا بدًا في سبيل النصر من رفض كل حل وسط، فقـالوا بوجـوب القضـاء علـى الآلهـة القـدامى. وحـاول الإمبراطـور يوليـان- وكان محبًا للفلسفة اليونانية- أن ينقذ الآلهة الوثنية إلى حين من أن تنـزل بها شرور أخرى، ولكنه مات متأثرًا بجراحه في حملة فارس. وأعاد خليفته يوفيان الكنيسة إلى ما كان لها من مجد، فأخذت المعابد القديمة تقفل أبوابها الواحد بعد الآخر. واعتلى العرش بعد ذلك الإمبراطور بوستنيانوس

الذي ابتنى كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية، وقضى على مدرسة الفلسفة في أثينا، وهي المدرسة التي أسسها أفلاطون».

ثم يقول فان لون:

«وكان ذلك خاتمة العالم اليوناني القديم الذي أباح للناس أن يفكروا كما يشاءون، ويحلموا كما يحبون. وقد أثبتت التعاليم الخلقية للفلاسفة والتي يكتنفها شيء من الغموض، أنها لا تصلح لقيادة سفينة الحياة بعد ان ذهب طوفان الهمجية والجهالة بالوضع المقرر للأمور. وأصبحت الحاجة ماسة إلى شيء أقرب إلى الواقعية وأدنى إلى التحديد. وقد زودت الكنيسة الناس بهذا الشيء، فقد ظلت كالصخرة في عصر ساده الشك وتبلبلت فيه الأفكار، ولم تتراجع قط عن المبادئ التي آمنت بصحتها وقدسيتها».

ثم يقول أخيرًا في هذا المعنى:

«وقد أثارت هذه الشجاعة الراسخة إعجاب الجماهير، وقادت سفينة الكنيسة الرومانية بسلام في خضم الشدائد التي قضت على الدولة الرومانية»!

الفصل السادس

وأخيرًا مع العلم والعصور الحديثة في أوروبا

تنهار الفلسفة ويسقطها المجتمع ليواجه الفراغ

بعد هذا البيان في الفصلين السابقين عن شهادة العالم القديم على الفلسفة اليونانية، ومنهجها غير العلمي إلى المعرفة، أي شهادة اليونان أنفسهم والناقلين عنهم على أنها أوهام لا ترقى إلى حقيقة يقينية، ولا تنتهي إلى معرفة تبني الحياة والإنسان، وتتسق مع العلم والواقع – يتأكد ضلال التوسل بهذا التفلسف الظني الذي لا ينبت في مجال المعرفة الإنسانية إلا ما هو من اللغو أشبه – كما قالوا – بالحرث في الرمال، أو النقش على الماء. ولقد قدمنا مثالا على هذا الواقع الخرافي الفلسفي صورة من أوزار التفلسف اليوناني كما قدمها أفلاطون في جمهوريته الهازلة غير الفاضلة، التي أقامها – وهو يهدم بهواه ونزواته إنسانية الإنسان، على هدم الأسرة، وإباحة الشيوعية في الجنس والأموال والأولاد بين الحكام والحاكمات العراة، من أجل أن يهيئ لطبقة من الحكام – أشباه ملوك اليونان القدماء – دولة لهم في عالم الخرافة التي لا يتسع بها أي مكان في الأرض، ليتعروا بشهواتهم وتظالمهم، وليسكروا ويفجروا، وهم يحتقرون العمل اليدوي، ويعجزون عن الفكر العلمي، والسلوك الأخلاقي، ويستبدلون بكل فئات العمال والعبيد.

ولكن: مع صحوة أوروبا في العصور الحديثة على تكبيرات الحق والصدق، وأضواء العلم والدين، من مصادرها القريبة إليها والبعيدة عنها للحضارة العربية الإسلامية، ومع امتداد ظلمات الفلسفة اليونانية إلى هذه العصور، بما حملته إليها في صور الفلسفات المتفرعة عليها من أوزار الاستعلاء العنصري، والقسر الطبقي، والولع الأسطوري، والشذوذ في إقامة الحضارة غير اليونانية على إدمان الخمر، وابتذال المرأة، والسخرة للعمال والملونين – بدأت بداية التململ من نير هذا الفكر الفلسفي الخرافي، وارتفعت الأصوات بدعوات التحرر من هذا الأفيون الفكري،

والسخرية من منهج للتفكير السري للمعرفة الظنية في وقت يتطلب فيه البشر في عصر انتشار العلوم الطبيعية بتطوراتها المذهلة وأدواتها الخطرة في مجال الحرب والرفاهية – منهجا جديدا للمعرفة اليقينية حول الأسئلة التي لم يستطع العلم الطبيعي أن يجيب عنها.. الأسئلة عن الإنسان، والحياة، وما بعد الحياة.. الأسئلة التي أجاب عنها الدين ولم تجب عنها الفلسفة.

نقد الفلسفة اليونانية:

في ضوء العلم العربي الذي استبان به لمفكري أوروبا مدى تخلفهم عن العرب، دعاة الدين والعلم معا، أخذ هؤلاء المفكرين يناشدون أقوامهم في الظلمات الأخيرة من عصورهم الوسطى، أن يسارعوا فيتحرروا من ضلالات وأوهام الفلسفة اليونانية، غير العلمية، وغير الواقعية، وأن يبحثوا عن نمط جديد من الفكر يستند إلى أساس علمي، ويستخلص الحقائق وليس الأوهام بالمنهج العلمي التجريبي العربي، كما جاء به العرب.

نذكر من هؤلاء المفكرين الأوربيين الذين نشطوا في ميدان نقد الفلسفة اليونانية فرنسيس بيكون الذي عاش فيما بين سنة 1561 وسنة 1626، والذي ولد في ظل البلاط الإنجليزي، والذي عاش يفكر متأثرا بمنهج وثمار العلم العربي، الذي طلعت شمسه على انجلترا أيضا قبل مولده بما يزيد على ثلاثة قرون، وذلك في عهد الملك جون الأول أخي الملك ريتشارد الذي قتل في الحروب الصليبية، وحيث انتقلت في عهده وفي نهاية هذه الحروب آثار ومؤثرات الحضارة العربية الإسلامية في أحاديث وتجارب الجنود والفرسان العائدين بهزيمتهم من أرض الحضارة والإنسانية، والدين والعلم، والشجاعة والعدل، وحيث أصدر الملك جون الماجناكرتا كوثيقة باتجاه العدل.

بدأ بيكون تفلسفه باتجاه العلم فنقد علة الجهل والظلمات والمآسي التي أطبقت على أوروبا طويلا في مصدرها الأساسي وهو الفلسفة اليونانية.. الفلسفة التي كانت تحمل دائما أسماء الفلاسفة الكبار فوق قاعدة أفكارهم الخرافية الضخمة وهم: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ومما جاء في كتاب «الموسوعة الفلسفية المختصرة» أيضا، وهي الموسوعة التي أشرنا مراراً إلى أن الدكتور زكي نجيب محمود قد راجعها وأقرها، وذلك في ترجمة لحياة فرنسيس بيكون «أن أهم ما أسهم به في الفلسفة كان في ميدان المنهج العلمي، فقد كان من أقوى المتمردين على التقاليد الأفلاطونية والأرسطية وأجلاهم بيانا».

ومما جاء فيها أيضا من أقوال بيكون عن فلسفة أرسطو: «إن المنطق الأرسطي غير مفيد بوصفه أداة للكشف، فهو يجبرنا بالتسليم بنتيجته ولكنه لا يكشف عن شيء جديد، وهو يجر التجربة من ورائه جرا كأنها الأسير»!

وواضح أن معنى ذلك في إشارته الصامتة إلى «المنهج التجريبي العربي» أن فلسفة أرسطو تقنع قارئها بما فيها من حيل جدلية سفسطائية، ولعب بالألفاظ، وبما تفرضه من مقدماتها التي لا أصل لها، ولكنها في النهاية، وبعيدا عن «التجربة الحسية»، التي هي أداة الكشف العلمي، فإنها لا تأتي بجديد، لأن ما فيها من الخرافات يملأ قبل ظهورها الأرض.

ثم يقول بيكون أيضا من نقده للفلسفة اليونانية بهذا المصدر، منددا بعملية الاستبطان الفكري:

«إن هؤلاء الفلاسفة العقليين كالعناكب ينسجون الأفكار من تجاويف عقولهم. على أن التجريبيين الغلاظ ليسوا بأفضل من هؤلاء، لأنهم

كالنمل يجمعون المواد دون ما هدف. أما النحل فهو يقدم لنا النموذج الصحيح لحظة السير العلمية، فالنظام هو سر الأمر كله، فعلينا بتجميع الوقائع أو التاريخ الطبيعي، واختزانها، وتفسيرها بتبصر وفقا لقوانين محددة».

الفلسفة حيرات ذهنية:

ودون أن نمل من تصحيح موقف الدكتور زكي نجيب محمود من هذا التعلق الحماسي بالفلسفة اليونانية، ومن هذه الحماسة البحترية في دعوة العرب إلى التفلسف على غرارها، نقدم له رائدا من رواده في هذه الفلسفة الوضعية المنطقية التي يعتنقها، والتي قام بتدريسها فترة في الجامعات المصرية، ونعني به أحد الطلائع في ميدان هذه «الفلسفة الوضعية المنطقية» وهو اليهودي النمسوي المولد، لو دفيج يوسف يوحنا فتجنشتين والذي عاش بين سنة 1881 وسنة 1951.

إن فتجنشتين – الذي هو أستاذ زكي نجيب محمود في أخص ما يملكه من معرفة وهو الفلسفة الوضعية المنطقية، والذي راجع الدكتور زكي ترجمة حياته أيضا في كتاب «الموسوعة الفلسفية المختصرة» – قام بتصحيح رأيه في الفلسفة أكثر من مرة، وكتب من الفكر «المعقول» حول اللغة والمجال الصحيح لاستعمالها، وحول نقد استعمالها «الخرافي» في الفلسفة، ما نعيد عرضه على صديقنا الودود الدكتور زكي نجيب محمود.. يقول فتجنشتين في كتابه «رسالة منطقية فلسفية»:

«الاستعمال الوحيد للغة الذي يكون كامل الدلالة هو أن تصور الوقائع. وهناك بعد ذلك استعمال اشتقاقي للغة ولكنه استعمال مشروع، وهو الاستعمال الذي نصوغ به تحصيلات الحاصل».

ثم يقول في ربط استعمال اللغة بالواقع المحس وليس بما وراء الطبيعة:

«كل محاولة تبذل لاستخدام اللغة على صور أخرى لن تكون إلا هراء، وبصفة خاصة لن تكون جميع الأقوال الأخلاقية والميتافيزيقية إلا أشباه قضايا، أي أنها انتهاك خال من المعنى لاستعمال اللغة الصحيح، مادامت أقوالا لا هي بالتجريبية، ولا هي بتحصيلات الحاصل».

ثم يعود فتجنشتين فيطور من نظرته إلى اللغة وهو يتحدث عن مجالها في «لعبة الألفاظ الفلسفية» وما يراه من نقد عام للفلسفة بصورها السائدة منذ اليونان فهو يقول في كتابه: «البحوث الفلسفية» وبعد أن يصف الفلسفة بأنها «سقوط في حيرة ذهنية» لا خلاص منها إلا بالمنبهات «التي تنبهنا إلى استعمال اللغة استعمالها الصحيح».. إنه يقول:

«تضع الفلسفة أمامنا كل شيء ثم لا تزيد، دون أن تفسر شيئا، أو تستنبط شيئا.. فطالما أن كل شيء مطروح أمام العين فليس هناك شيء يحتاج إلى تفسير..!!»

ربما من أجل هذا التوقي اللازم من خطر بحران الفلسفة، التي تقول ولا تقول، كانت محاولات فتجنشتين الطويلة، وغير المجدية في عالمه بالطبع، من أجل أن يقيم «لغة مثالية لا يكون من شأنها إغراء أحد بأن يقول كلاما فارغا أبدا».. يريد أن يقول: «لغة مثالية لا تسمح له أبدا بأن يتفلسف».. فهل كان وهو العبري الأصل يحمل بمثل اللغة العربية.. الدينية!؟

علم بغير إيمان:

هذه البواكير من العلم العربي، وكما أضاءت ظلمات العصور الوسطى في أوروبا بما بلغ إليها من شمس الحضارة العربية الإسلامية، لم تكن كافية فيما قسمه الله للأوروبيين من حظوظهم بالتفلسف الذي

يتظالمون به، وبالتظالم الذي يتفلسفون من أجله، لكي يهتدوا مع أضواء هذا العلم العربي بالنور الذي حمل إليهم هذا العلم، وهو علم الإيمان الأبعد مدى، والأعمق أثرا، في حياة الإنسان، من حيث إنه العلم اليقيني الذي يهتدي به إلى كل ما عداه من علم، يفسر به حركة هذه الحياة، وسنن الله فيها، وفي الأشياء والإنسان.

لقد عجز الأوربيون في حصار فلسفاتهم، وتحت أطباق الظلمة والقسوة في نظم مجتمعاتهم، أن يجمعوا من عطاء الله – الذي لا ينطقون باسمه بعد أن نزلوا بالفلسفة عن مستوى رؤية الطريق إليه – وهو عطاؤه بهذا العلم الذي تغيرت به مصائرهم، فأثاروا الأرض، وفجروا مكنون معادنها، وسيطروا على ما بلغوا إليه من مصادر القوى الطبيعية بها، واخترعوا الأدوات والآلات، والأسلحة الحديثة والمتفجرات، وأقاموا المدن الكبيرة، وأضاءوها بالكهرباء، وربطوها ببعضها بشبكة من القطارات والسيارات والطائرات، وشبكة أخرى من مواصلات التخاطب السلكي واللاسلكي، وأججوا في كل مكان نيران المصانع، وضاعفوا من أحجام المصنوعات، وتمكنوا بتطوير أساطيل البحر سرعة وحجماً من السيطرة على تجارة العالم، ومن الاحتكار لكل منافع التجارة مع العالم.. ولكن..

ولكن هذه القوى العلمية الهائلة، والمذهلة، لم تقربهم شبرا أو إصبعا من علم الإيمان.. أي من علم العدل.. العدل في تصور الخلق متوازنا في حكمة الله، وسائرا إلى غاية بعيدة في حكم الله.. ولذلك فعلى كل إنسان في يقينه بهذا العدل الإلهي المحيط به، والمتمثل فيه، أن يعدل مع نفسه، ومع ذويه، ومع مواطنيه، ومع أهل الأرض جميعا.. أن يعدل بالقول والعمل.

أن يعدل بالحرية ويطلبها لنفسه وللجميع.. وبالحياة والأمن والرخاء، يعمل لها ويحميها لنفسه، كما يعمل لها ويحميها مع الجميع، ومن أجل الجميع.

لقد كان التظالم في حياة الشعوب الأوروبية، بما امتلأ به تاريخهم من الطبقية وجنونها، وفجورها ومذابحها، هو قدر هذه الشعوب.. قدرها الذي اقترن بالفلسفة.. لما كان غير الفلسفة، أي هذه «العلوم السرية الطبقية» التي يخدع بها الملوك والسادة عبيدهم، سلاحا وطريقا وجسرا إلى هذه الحياة السوداء، التي لا يزال يمارسها الأقوياء ضد الضعفاء، والسادة ضد العبيد، ولو باستخدام أرق الأسماء، وأكذب الشعارات.

في قبضة هذه الفلسفات الشرسة في أعماقها، والناعمة المخادعة السفسطائية في ألفاظها، ما كان أسرى هذه الحضارة الأوروبية الفلسفية الطبقية المخادعة ليجسروا على معارضتها، إلا داخل أنفاق وسراديب، والتواءات وانحناءات صنعها الأقوياء للضعفاء ليقطعوا فيها المسافات الطويلة نحو العدل الموهوم، والذل المحتوم، من باب العزاء لقلوبهم، والتشجيع لهم من آسريهم على مزيد من الجهد والصبر، لمزيد من خدمة وإمتاع السادة، حتى يهلكوا جهدا.. وجوعا.. وصبرا..!!

وما نحن هنا بحاجة إلى استعادة إشارتنا لتاريخ الاستعمار الأوروبي الذي كان بكل مظالمه البشعة خارج نطاق الحياة والأرض الأوروبية هو أسرع الأطماع الأوروبية العدوانية لهذه الوثبات الكبرى على طريق الحضارة الصناعية، والقوى الآلية والعلمية. ومع ذلك فإن الظلم النسبي في معاملة الطبقات الحاكمة في نظم أوروبا الاجتماعية والسياسية المعاصرة للطبقة المحكومة – لا يزال قائما برغم الثروات المنهوبة، والقدرات العلمية.. أي أنه هذه الطبقة العاملة من الفلاحين والحرفيين، لا تزال كما

كانت على نظرة اليونان الأوائل إليها من الامتهان، والحرمان، وتزييف الإرادة السياسية، في هذه النظم الفلسفية المعاصرة سواء أكانت شيوعية شرقية، أو رأسمالية غربية.

إنه بهذا العلم الناقص بغير إيمان.. أي بغير عدل ولا أمن.. وبغير أمل ولا هدف.. وبغير أسوة إلى تطهر أو خلق، وإلى محبة أو إيثار... بدأت ظواهر التمرد على هذه النظم الفلسفية «السرية والطبقية» برغم الادعاءات العريضة بجماهيريتها وسواسيتها في الشعارات وفي الكتب السياسية والاجتماعات، تتسع وتنتشر، دون أن يكون هذا التمرد عليها موضع نذير بحتمية تصحيح المسار عند أباطرة هذه النظم، الذين أنهكتهم الأطماع، وخدرتهم السلطة، وغرتهم الأماني.

لقد أخذت الثورة على هذه النظم المذهبية «الفلسفية» تتدافع في تياراتها المختلفة، في حين أن أصوات قعقعة هذا الانهيار لدعائم وعمد هذا البنيان غير الإنساني لحضارات «الفلسفة» – تصم الآذان – بالنسبة لمن يسمع – وسط الضجيج الفاجع الذي تختلط فيه قهقهات السكارى بصرخات المعذبين.. والذي يعلو فيه أمر الله في سننه التي لا تتبدل بتقويض كل حضارة ظالمة غاشمة، كما وقع ذلك مرارا لجميع حضارات العرب كلما تظالموا بعد العدل، ونسوا الله بعد الإيمان، وغرقوا في الترف بعد القصد في العيش، والمقاسمة في الأموال..!

الثورة على الفلسفة:

كانت بدايات الثورة على الفلسفة موجهة – في ضوء المفاجأة الأوروبية بالمنهج العلمي العربي – إلى نقد كل ركائز الظلم الطبقي الذي كان يسانده الملوك، الذين سخروا كل وسائل التمويه والتخييل ومنها الأوبرا لتأكيد الادعاء الوثني القديم بنسبتهم إلى الآلهة، بعد أن سخروا

الدين لترويج هذا الادعاء. ثم لما لم تعد هذه المؤثرات التخييلية كافية حاولوا بالإنفاق على المسرح، الذي يعطي به العامة ظهورهم للواقع المرير، أن يجعلوا منه مخدرا لأية انفعالات تتوجه بالثورة على الظلم بين الجماهير، التي بدأت بتذكيرات قادتها بطلب الحرية بمفهوم المساواة، والتي أخذت في بواكير صحوة أوروبا العلمية تتجاوز هذه الخدع الملكية إلى أهداف جديدة للفكر تسير وراءها باتجاه تغيير وتطوير العقلية الأوروبية نحو مزيد من الصدق العلمي في رصد حركة الواقع، وفي نفس الوقت نحو مزيد من التحرر من أوهام الفلسفة في كل ركائزها وفنونها التمويهية التي كان يرعاها ويبثها المستبدون من الملوك والأمراء، والسادة والحكام، لترسيخ نظمهم الاستبدادية والطبقية.

ومنذ عهد فرنسيس بيكون الذي أشرنا إليه كان هذا المفكر الإنجليزي الطبقي، الذي ولد وعاش في ظل البلاط الإنجليزي – يعمل ضد طبقته باتجاه المزيد من العلم لتحقيق المزيد من العدل، وذلك في تجربة فكرية خصبة حاول فيها في ثورته على «الفلسفة» وأوهامها أن يضربها في الصميم – لقد كان فرنسيس بيكون، تلميذ المنهج العلمي العربي المتفوق، يدرك تماما بتفحصه العميق لما وراء المنهج العلمي التجريبي هذا الذي أضاءت به حضارة العرب المسلمين من حقائق أخلاقية، وركائز اجتماعية، قامت عليها هذه الحضارة زاكية وشامخة في كل مجالات الحياة الإنسانية.. قامت بغير أوبرا.. ولا مسرح.. ولا فلسفة.. كما قامت في نواهيها العظمى، وحصانتها الدائمة، بغير خمر.. ولا عهر.. ولا عدوان..!!

لذلك فقد أحسن بيكون أن يقول في بعض نصائحه لأبناء وطنه الإنجليز، ولقراء كتبه من الأوروبيين، من ظواهر هذه الثورة الأولى في

ضوء العلم – على الفلسفة، وهو يحذرهم من الاستكانة لعدد من الأوهام الخطرة التي عددها لهم بقوله:

«وهنالك أخيرا من هذه الأوهام «أوهام المسرح» التي تنشأ نتيجة للمذاهب الفلسفية، ولا يمكننا علاج هذه المعوقات بكشف ما يقوم به الآخرون من استدلالات فاسدة، ولكن ببسط منهج البحث الجديد على نحو واضح لكي يستخدمه الجميع».

على أن العصور الحديثة لم تكد تغمر كل شيء بضوضائها العلمية والعلمانية، وضجاتها المذهبية والصراعية، حتى ظهرت علامات هذا التمرد على أوهام الفلسفة واضحة في الكثير من أنشطة البشر المسحوقين، وصرخات المفكرين المحذرين والمنذرين.

أما هؤلاء العلماء الذين سبقوا إلى التحذير بأن «الانهيار» هو وحده النهاية الحتمية لمثل هذه الحضارة القائمة على وحدة المفهوم بين الاستبداد والفلسفة، فقد قدموا في الواقع، ومنذ وقت مبكر نسبيا، هذا المبرر لجميع الثائرين والمتردين على الفلسفات وأوهامها من كل نوع لكي يمضوا في طريقهم، ولو بعد فوات الوقت. نذكر من هؤلاء المؤرخ الألماني أوزوالد شبنجلر في كتابه «أفول الغرب»، ونذكر العالم الرياضي الإنجليزي برتراند راسل في كتابه «ألف باء النسبية»، كما نذكر المؤرخ الإنجليزي أرنولد توبيني الذي أفزعه في استقرائه للتاريخ مصير الحضارة الأوروبية «المسيحية» كما يتصورها، فكتب كتابه «العالم والغرب» يقدم فيه محاولته اليائسة لاستبقاء هذه الحضارة – برغم علامات وأصوات انهيارها المدوية – وذلك حيث يزعم أن اتجاه الغرب إلى نشر التقنية الحديثة بين الشعوب المتخلفة كفيل بأن ينشر معها «المسيحية» بمفاهيمها

الغربية، وبذلك يتحقق انتصار الغرب المسيحي في نظر توينبي على الإلحاد الشيوعي الذي لا يملك مع التقنية شيئا بقدمه.. غير الإلحاد!!

هكذا يفكر هذا المؤرخ الإنجليزي الغائب على الصواب، وقبل أن يسأل نفسه – إن كان هو المسيحي بحق: هل هذه الحضارة الأوروبية المثقلة أمام أعين العالم، بجرائم وموبقات الخمر والجنس والعنف، والمرض النفسي وهذا الذل الطبقي للمحكومين المسحوقين برغم ضحكاتهم المجنونة، بغير إنسان فيهم، أو أسرة لهم، أو أمل أمامهم، أو طريق تحت أقدامهم.. هل هذه هي «المسيحية» كما دعا إليها المسيح، وكما نزل بها الإنجيل، وكما لم تعرفها أوروبا في كل تاريخها المتناقض بقسوته وعدوانه مع المحبة والرحمة في المسيحية، وذلك منذ استشهاد القديس بولس في كورنثوس باليونان، والقديس بطرس في روما، والقديس مرقس في الإسكندرية، ثم آلاف الضحايا وملايين القتلى حربا على المسيحية، واضطهادا وثنيا أو مذهبيا لأهلها واستمساكا متجددا بتراث الطغيان الفلسفي.. أو فلسفة الطغيان.. منذ عصور اليونان..!!

مذهب المنفعة:

ولكن هل أفاد التحذير في ضوء العلم وأدواته الصاخبة والجارفة مع بزوغ القرن العشرين؟.. لقد مضت أوروبا فانجرفت بالمثل، وعلى الرغم من ظهور بوادر ثورة عدد من مفكريها العلميين على الفلسفة، وإن كان باستخدامات غامضة لاصطلاح الفلسفة – انجرفت بهذا العلم الأهوج الوليد الذي يتدفق في عروقها بغير إيمان كالإعصار، نحو ما يمكن تسميته بمذهب «المنفعة»، أو فلسفة الذرائع التي تترجم بلغة العصر وبصور عنيفة وغير أخلاقية تلك الفلسفة الميكافيلية التي كان يبرر بها الإيطالي ميكافيلي كل جرائم الأطماع والعدوان بوصيته المشهورة: «الغاية تبرر الوسيلة»!!

في سنة 1878 ابتكر الفيلسوف الأمريكي تشارلس ساندرز بيرس الذي عاش ما بين 1839 و1914 كلمة برجماتية Pragmatism على أنها تعني في تفكيره الرياضي الفلسفي قاعدة منطقية تقصد «إلى تحديد معنى الكلمات التي صاغها» وكان يصور هذه البرجماتية في آثارها العملية بقوله: «إن البرجماتية تعني أن الفكرة وهي الفحوى العقلي للكلمة إنما تنحصر فيما نتصوره لها من أثر على مسلك الحياة، إذ بديهي أن ما ليس ينتج عن التجربة يستحيل أن يكون له أثر على السلوك».

ولكن سرعان ما استعار فلاسفة آخرون كلمة «البرجماتية» وأعطوها معاني أخرى غامضة، مثل شيلروجون ديوي الذين اتجهوا بهذه الكلمة وجهة الإعلان على فلسفة مطابقة للعصر، فلسفة نفعية تجعل من مطلق المنفعة في أهواء أصحابها، أفرادًا أو حكومات، أساسًا للعلاقات بغير نظر للأعراف والأخلاق والمواثيق إلا بقدر ما تجره على أصحابها من منفعة في نتائجها العملية، وهكذا ظهرت في قلب أمريكا في أوائل القرن العشرين هذه الفلسفة البراجماتية التي تضع المذهب النفعي في القالب الفلسفي الذي يساعد في المناخ العقلي الأوروبي الأمريكي على سرعة انتشاره.

لقد ظهرت وانتشرت فلسفة جون ديوي الذي عاش ما بين 1859، 1952، وحيث وضع لعصره هذه الفلسفة النفعية التي كان لها تأثير واسع في مجال الشئون العملية، وقد انصبت فلسفته بكل دعائمها اللولبية على الدوران حول محور واضح، محدد في بيع الأخلاق بالمنفعة، وانتزاع المنفعة من أي اتحاد بينها وبين الأخلاق. هذا المحور هو شعاره العنيد في وجه تيار الحياة الأوروبية القاسية، التي يزلزلها العلم بغير إيمان، وذلك حيث يقول وكأنه يكشف عن قانون علمي لعلاقات وتعاملات عصره:

«إن كل ما له قيمة، أو ما هو نافع، هو صادق»!!

ثم يختصر هذا الشعار مرة أخرى مع المحافظة على شدة مرارته، وشدة خطورته فيقول: «الصادق هو ما يفيد»[1].

وتحت هذا الشعار انفتح الطريق أمام جون ديوي ليستعجل مأساة الأجيال الجديدة فيما بقى من عمر هذه الحضارة الأوروبية الفلسفية المنهارة، فأخذ يهاجم «الغيبيات» وعلى رأسها «الدين» الذي لا يعي من أمره الحق شيئًا، أي يهاجم هذا التراث الضخم من أوزار من حاربوا المسيحية السمحة باسم المسيحية، ممن باعوا صكوك الغفران، وشاركوا في جرائم الاستعمار، ونفثوا الأحقاد في تأجيج الحرب الدينية المذهبية بين أتباع المسيحية بطول أوروبا وعرضها، وخاصة في فرنسا، وحتى اليوم في إيرلندة.

وكذلك هاجم جون ديوي الغيبيات الفلسفية من خلال مهاجمته لمحنة الشخوص بالفكر إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا.. وإن كان لم يجد مناصًا من أن «يتفلسف» بهذه الفلسفة النفعية التي أوقد بها النار في كل من الفلسفة.. والأخلاق!!

فهل كان جون ديوي شيطانًا مخادعًا بهذا المذهب الذي رفع أركانه اللولبية أمام مواطنيه، ليكون صنمًا معبودًا للمنفعة بكل المقاييس، ومبررًا للسقوط في هاوية الغواية بهذه المنافع الصغيرة أو الكبيرة بكل مستوياتها، والدوران الأعمى وراءها..!؟

هل جون ديوي مسئول مثلا عن سياسة الحكومات الأمريكية التي قامت بعد ظهور فلسفته، والتي اجتهدت في صياغة عقل الشاه الإيراني،

---

(1) راجع ترجمة حياة جون ديوي وفلسفته في «الموسوعة المختصرة للفلسفة».

وصياغة نظام وأهداف حكومته، ليكون عبر المذابح، والحكم التسلطي الفردي، والهوان والجوع للشعب الإيراني، هو أداة تحقيق «المنفعة» للسياسة الأمريكية الطائشة في مخططات استعمارها المتستر الجديد للمنطقة العربية.. فلما أن سقط الشاه بعد نحو نصف قرن من المظالم والمفاسد والأهواء، وكان سقوطه بثورة شعبية ساحقة لنظامه، ومستعينة باسم الدين وسلطانه وعدالته عليه.. أدارت الحكومة الأمريكية وجهها بغير تردد عن الشاه المذبوح والمنفي والهارب من القصاص.. الشاه الذي هو صنيعتها بقوة غوايتها لغروره، وغبائه وتسلطه.. وذلك باسم «المنفعة».. ووراء «المنفعة».. لكي تدور بوجهها نحو الحكومة الثورية الإيرانية الجديدة.. تحاول استرضاءها، وتقوية علاقتها بها، واصطناع سياسة جديدة لتحقيق «المنافع» معها.. برغم شطط القيادة الدينية الإيرانية الحالية في كثير من مواقفها عن كثير مما كانت تتوقعه من حكومة إيرانية حلت محل الشاه تجاه أمريكا.. وحتى بعد أن طردت الشاه من حق اللجوء إليها.. قربانًا لهذه المنفعة.. في مجالها السياسي، والفلسفي، وغير الأخلاقي أيضًا، في مذهب جون ديوي..!؟

وكذلك حول ما انحدرت إليه الحضارة الأوروبية الفلسفية على مزالق هذا المذهب النفعي الذي يجعل «الصدق» في معادلة مع «المنفعة»، كما جعل مفهوم الحق من قبل في معادلة خاسرة مع القوة.. نعم.. إننا فوق هذا المنزلق في السياسات الأوروبية المعاصرة نحو «الفلسفة النفعية» في قسوة ومرارة وبشاعة ثمراتها، وذلك تحت تأثير حياة علمية آلية معقدة غير متوازنة ولا موجهة بقوة وعدل وأمانة وصدق الإيمان – إننا نتساءل عن الموقف «النفعي» الذي ستنتهي إليه السياسة الأمريكية الراهنة تجاه تعنت إسرائيل، التوسعية والعنصرية، ضد التسليم الصريح والأمين بشروط

معاهدة السلام مع مصر، أي تجاه هذا التصلب الغبائي والاستعلائي برفض التسليم بحقوق الشعب الفلسطيني في وطن قومي للفلسطينيين، وحكومة حرة لهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتجاه عودة القدس الشرقية العربية إلى أصحابها العرب والمسلمين باعتبارها جزءًا من الضفة الغربية.

إننا نتساءل عن موقف أمريكا «النفعي» أو «الودي» تجاه العرب والمسلمين في العالم، وبخاصة بعد أن تحطم الوفاق بينها وبين الاتحاد السوفييتي باغتيال الروس السافر لاستقلال وحرية شعب أفغانستان المسلم، وبعد ، رفعت أمريكا صوتها بالوقوف إلى جانب المسلمين في باكستان بالمال والسلاح، وبالقوة العسكرية إذا لزم الأمر.

إننا نتساءل عن هذا الموقف الذي سيخرج – مع تسارع الأحداث المعقدة في العالم اليوم في لهب الصراع «النفعي» – سيخرج بالوضوح من ظلمات التمويهات والمسكنات الطويلة.. هل ستقف أمريكا مع المنفعة «المشروعة» و«الأخلاقية» و«الدينية»، فتعجل بالحق الفلسطيني إلى أصحابه، وهم العرب المسلمون الذين طال العهد عليهم تحت مظالم، ونير، ومذابح الصهيونية العالمية، أم أنها ستظل بمفهوم المنفعة «الفلسفية» لجون ديوي هي الحامية لأطماع إسرائيل، حتى ولو شبت الحرب العالمية الأخيرة؟

لا شك أنه بعد حوادث أفغانستان وما بعدها، وبعد هذه اليد البيضاء التي قدمتها مصر قبل ذلك لإسرائيل، والتي فتحت بها باب الأمن والوفاق والحياة الطبيعية بينها وبين جيرانها العرب لأمد طويل، لا يزال العالم يوالي بكل ظواهر الانزعاج والقلق هذا الصراع الظاهر والخفي بين «منافع» السياسة الأمريكية كما تحصل عليها من يهود أمريكا وأوروبا في مقابل دعم إسرائيل، وإطلاق العنان لها حتى في رفض الشرط الصريحة التي

قامت عليها معاهدة السلام في مصر.. وبين هذه «المنافع» الأبقى، والتي يمكن أن تكتشفها سياسة أمريكية أكثر تبصرا لمصالحها إذا ما رفعت يدها عن حماية العدوان والابتزاز والغرور الإسرائيلي، فرجعت الأرض والحقوق العربية المغتصبة بإسرائيل إلى أصحابها.. وكسبت أمريكا صداقة العرب.. وحافظت على «منافعها» الأكثر دعمًا لاقتصادها ورخائها.. بصداقة هؤلاء العرب..! ومعها صداقة المسلمين.. وفي مقدمتها صداقة شعب مصر..!

نحو الصدق العلمي:

من هذه المرحلة، مرحلة المذهب النفعي، الذي قاد إلى تيار العلم ثمرة للحضارة العربية، ولكن بغير إيمان يتوازن بجذوره مع هذا العلم، اتجهت الحضارة الأوروبية الفلسفية في انتفاضاتها الفكرية العنيفة بهذا العلم الذي لا إيمان فيه، إلى مرحلة أخرى على طريق التمرد على الفلسفة.. انتقلت في محاولة نحو الصدق العلمي، أن تجعل لهذا التمرد ضد الخرافة، وأوهام الصور والمثل وماء وراء الطبيعة، صوتًا مسموعًا في مجتمع الحضارة الذي ساده في سياساته، وعلاقاته، وموازينه، هذا المذهب النفعي كما صوره جون ديوي بقوله «الصادق هو ما يفيد»..!

فطالما أن العلم بمعنى «القوانين الطبيعية» في كل مجال كان ولا يزال هو نقطة اللقاء الوحيدة على فضيلة «الصدق» بين شعوب العالم، وفي كل عصور البشر، فإن أعظم ظواهر التحرر من أوهام الفلسفة، ومن ارتباطاتها الوثيقة بالمفهوم الاستبدادي والسري والإباحي للمعرفة، كما ساد هذا المفهوم في عهد الصفوة الأرستقراطية من الكهنة الأوائل لهذه «المعرفة السرية» وهم: سقراط وأفلاطون وأرسطو – إن أعظم ظواهر التحرر من أوهام هذه الفلسفة الكهنوتية الطبقية تبدأ ولا شك – كما

حدث تمامًا خلال هذا العصر – من بداية تمرد العلوم الإنسانية في مناهج أبحاثها، وطرق استدلالها، ووسائل جمع المعلومات الإحصائية لخدمتها – على الأشكال والصيغ الفلسفية القديمة التي ظهرت في ضبابها، وهامت وراء أهدافها العملية في متاهاتها.

ولقد كان علم النفس وعلوم الاجتماع في المجالات المختلفة في مقدمة هذه العلوم الإنسانية التي سارع علماؤها إلى هذه المواجة العلمية لخطر «التفلسف» في محاولة لبناء وتجديد وتنمية هذه العلوم على ركائز ثابتة من الصدق العلمي، وذلك باتباع أمين وإنساني للمنهج العلمي، كما تلقته أوروبا عن العرب، وحتى تتخلص من آثار التدمير للنسق العلمي، والإطار الأخلاقي، لهذه الفلسفة العدوانية على كل البشر كما خرج بها في مجال العلوم النفسانية، التحليلية والتقريرية والعلاجية، العالم الأسطوري التلفيقي المصاب بالعصاب وبارانويا العظمة والاضطهاد بلغته: «سيجموند فرويد»..!!

ولكن مع كل هذا التمرد على فلسفة «المعرفة السرية الطبقية» في كثير من العلوم الحديثة، وباتجاه جديد يمكن أن يسمى بالطريق الواسع نحو «علمنة» الفلسفة، أي إخضاع العقل الأوروبي، الذي لا يزال «فلسفيًا» بحكم نظمه الطبقية في الشرق الشيوعي، أو الغرب الرأسمالي، وبحكم طريقة «الاستبطان» والشخوص السائدة على منهج التفكير الأوروبي من ميراثه الهندي، وبحكم مناخه الجليدي وواقعه الجغرافي – هل يمكن لعلم بغير دين، ولحضارة علمية قائمة على نظم طبقية طاغوتية بغير عقيدة دينية صحيحة، تهدي إلى الله، وإلى طهارة السلوك، وإلى العدل، وإلى السواسية، وإلى الإيثار، وإلى الآخرة.. هل يمكن لهذا العلم في مثل صرخات تمرده الأخير، تحت القباب والركائز المتداعية للانهيار في هذه

الحضارة.. أن يمنع انهيارها.. وأن يمنع قوافل اليائسين منها، في لحظاتها الأخيرة، من أن يشقوا طرقهم العفوية، والذهولية، للخروج منها..!؟

هل يكفي مثلا أن يقف أحد علماء هذه الحضارة الطبقية غير الدينية وغير الأخلاقية، وهو يتمرد على أكاذيب عقلها المنحل، وعلى أوهام منهجها التفكيري المختل، متوجهًا بنذيره إلى مواطنيه الأوروبيين ليحذرهم من خطر التفكير الخيالي، ومن النزوع في تربية الأطفال هذا المنزع الأسطوري، كما فعل العالم النفساني «بول باوزفيلد»[1] في كتابه «مبادئ التحليل النفسي».. لكي يوقف انهيار هذه الحضارة!؟

يقول بول باوزفيلد في كتابه العلمي القيم هذا، وكأنه يؤبن بهذا القدر من الصدق العلمي، هذه الحضارة الخيالية الأسطورية في لحظاتها الأخيرة، وإن كان في موقف التحذير.. والأمل لمن يسمع.. وحيث لا يوجد من يسمع.. إنه يقول في أن خطر التفكير الخيالي مثل خطر المخدرات:

«جميع من يكتبون القصة – بمفهومها الخيالي الأوروبي – هم من ذوي التفكير الخيالي. والتفكير الخيالي تفكير غير موجه، والخطر في الإفراط فيه يشبه خطر إدمان المورفين. كما أن فيه كل مساوئ وأضرار العادات، لأن هذا التفكير لا يمكن أن يظهر في نفس الوقت مع التفكير الموجه، أو التفكير الحقيقي، وينبغي أن نتبين أن التفكير الحقيقي هو الأصل في تكوين الأخلاق، وفي التقدم الجوهري للعالم».

ثم يقول من خطر مرض القصص غير الحقيقية على الشعوب وإصابتها بالأمراض العصبية:

---

(1) راجع كتاب «قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح» للمؤلف صفحة 343 إصدار دار الجيل.

«إننا هن يجب أن نذكر أن الاضطرابات العصبية قد لا تصيب الأفراد فقط، بل إنها غالبا ما تكون مرضا يصيب الشعوب! وفي ضوء ما سبق نعلم أن الصحة العقلية للأفراد والشعوب يمكن أن تصان إذا احتفظ الفرد، أو الشعب، في الوعي بحقائق الحياة اليومية سواء أكانت هذه الحقائق سارة أم مؤلمة»!

ثم يقول في بداية التحصين للشعوب من خطر الانحلال العقلي بسبب النشأة على الأساطير:

«ويمكن منع هذه الحالة الخطرة، أو على العكس يمكن تشجيعها في الطفولة، حيث إن القصص الخيالية تعد في «حياتنا الأوروبية » من امتيازات الطفولة، ولكنها في الواقع، وبرغم الفكرة الزائفة عنها هي آفة الطفولة المهلكة»!!

ثم يقول: «وقد يسأل الإنسان الأوروبي نفسه ماذا عسى أن يكون من أمر الطفل الصغير لولا القصص الخيالية؟ وإن أمه «الأوروبية» لتقص عليه واحدة منها كل مساء، فأجيبه هنا بأن الأم في كل مساء تربي في ابنها المسكين عادة تجنب الحقائق، وتشجعه على الاستعاضة عنها بخيالات قد تعرضه في المستقبل للكثير من المصائب والآلام»!!

ثم يقول: «إن هذه القصص.. الخيالية – برغم ما فيها من إشباع رغبة التمتع عند الطفل لا تؤدي إلى شيء غير الانحلال العقلي»!!

فيا ترى.. هذا التأبين للعقل الأوروبي الذي تفاقم انحلاله في السنوات الأخيرة، ومع استمرار هذا التفكير الخيالي بتربية الأجيال الأوروبية المتعاقبة على أساطير ومخدرات قصص من نوع: سندرلا.. والطحان والقزم، وذات الحذاء الأحمر – بعيدًا عن التفكير الحقيقي الموجه.. التفكير

المستقر على الصدق العلمي، والصدق الأخلاقي.. هل يكفي هذا التأبين المتأخر لحضارة «المعرفة السرية الطبقية» والفلسفة الاستبدادية الإباحية غير العلمية.. هل يكفي هذا الصوت الموجه بالفكر الحقيقي لكي يصل بأوروبا وأمريكا وحضارتهما الأسطورية إلى منفذ للنجاة.. وإلى اكتشاف أن العلم لا يكون أساسًا لتقدم الأمم، وبناء أزهى وأقوى وأنفع الحضارات، إلا إذا كان هذا العلم توءمًا مع الدين الحق.. بل إذا كانت ركيزة هذا العلم هي الإيمان، وشرائعه، وأخلاقه، التي تقود بالعلم، وباستثمار قوانينه تقنيًا وصناعيًا، إلى عمران باذخ بالعدل، ومشرق بالسواسية، وعزيز بالحق، ومزدهر بالسلام..!؟

نعم.. هل تفيد هذه الكلمات العلمية الصادقة في مواجهة علة العلل في هذا الانحلال الفلسفي الطويل للعقل الأوروبي، وفي إنقاذ هذه الحضارة الأوروبية من أعراض وظواهر انهيارها..!؟

كيف..؟.. وقد أخذت قوافل الهاربين من خطر تداعيها فوق رءوسهم، تتزايد وتتابع.. على طرق النجاة منها.. متحركين وحقائبهم وراء ظهورهم نحو المجهول.. ذاهلين بغير هدف.. وبغير أمل.. وبغير طريق!؟

تعليم العقل.. ثم العودة للإيمان:

لقد كان لهذا الانحلال العقلي الذي تابعت به الشعوب الأوروبية والأمريكية مسارها المحتوم نحو انهيارها أثره في تنشيط هذه الظواهر السلوكية العفوية التي تدل على بدء الشعور الجماعي بحقيقة هذا الانحلال العقلي، فلقد سقطت تمامًا – وبرغم أماني الدكتور زكي نجيب محمود – دولة الفلسفات التي تقوم عليها نظم الحكم الجائر، والمتخبط، والنفعي غير الأخلاقي، في كل من نظم الدولتين الأوربيتين العظميين: روسيا وأمريكا.. لقد سقطت هذه النظم الفلسفية الطبقية

المستبدة أمام أعين المتعبين والمنسحقين من رعاياها، ومن كل شعوب العالم.. وظهر الطريق إلى نهاية الصدام المدمر، ونحو دمار كل العالم.. مفتوحًا وجليًا.

بل لقد سقطت هذه النظم الفلسفية الجائرة، وسقط معها في وعي الإنسان المعاصر – وفي سكرات النهاية لهذا العالم – كل تعلق سابق بجذور هذه الفلسفة الطاغية في مراحلها اليونانية الأولى، حيث كان من العسير أن يحس الملوك الطغاة، مثل فيليب والإسكندر، وكهنتهم الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو، بهذا «الانحلال العقلي» الذي غرقوا في أوزاره، وتدثروا بمرقعاته، وتعاظموا بهلوساته.. والذي انتهى من بعدهم، وحتى في عصر العلم المستعار بغير إيمان، إلى هذه المأساة.

لقد سقط وتناثر كالرميم في أكفانه كل هذا التراث الفلسفي الذي حمل في عبث غير العقلاء بالطبيعة، والمجانين بالقوة، اسم «المعرفة السرية للصفوة»، وحيث ارتعد الإسكندر المتجبر والمغتر والمداهن عندما سمع في رحلة عدوانه وغزواته على أرض العرب، وباتجاه الهند، وكما يروي ذلك المؤرخ الإغريقي بلوتارخ – أن أستاذه وكاهنه أرسطو قد أباح إطلاع بعض أحرار اليونان من السادة على بعض هذه المعرفة السرية الخاصة بالملوك وبطانتهم من السادة والقادة، فكتب إليه الإسكندر من موقعه من الأراضي التي يغزوها، ويسفك دماء أهلها، ليسرق خيراتها – يقول من قمة الطغيان: وهاوية الهذيان:

«لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء الباطنة من العلم، وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس إذا جعلت «المعرفة العليا» التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم أجمع»..!!

فرد أرسطو على الإسكندر بقوله الفلسفي الكهنوتي:

«لقد نشرناها ولم ننشرها.. ولن يصل إلى فهمها إلا من درس علينا مثلك»..!!

وهكذا.. من ميراث الانحلال العقلي القديم، وحيث كان الملوك الطغاة طبقة.. وحيث كان كهانهم وفلاسفتهم طبقة.. وحيث كانت «المعرفة العليا» نفسها طبقة.. سقطت الأقنعة عن كل أكاذيب الفلسفة، القديمة والمعاصرة.. سقطت بأوهامها.. وأسرارها.. وأساطيرها.. ومخدراتها.. لقد سقطت دولتها تماما منذ عهد اليونان الأوائل.. وحتى اليوم.. وحيث ظهرت في شمس المنهج العلمي المستعار من حضارة العقل والإيمان.. من حضارة العرب.. حقيقة هذا الانحلال العقلي في تتابع مراحل الحضارة الأوروبية.. هذه الحقيقة التي نثرت في الفضاء.. وبقوة التمرد العلمي في ضوء العلم، وتحت أعباء الظلم.. هباء هذا الرميم الفلسفي.. الذي أغلق الطريق المفتوح بين الأوروبيين وبين الله.. حتى بعد أن بلغ إليهم، وسار فوق أرضهم، من دعاهم إليه من المؤمنين العرب.. من مؤمني المسلمين، والمسيحيين، واليهود..!.

من أجل ذلك، وبعد مرحلة التمرد بالعلم على دولة الفلسفة، وبعد صحوة الشعور بين المسحوقين من رعايا وضحايا النظم الفلسفية الأوروبية المعاصرة بواقع «الانحلال العقلي» الذي قادهم في مراحل تفلسفهم إلى حافة هذه الهاوية التي تفتح فمها، بأنيابها الهيدروجينية، لابتلاع العالم – نحكي للقارئ العربي، وللدكتور زكي نجيب محمود بالضرورة، ما غاب عن علم «معرفته الفلسفية العليا» بعض القليل مما نعرفه وما في الإمكان معرفة الأشد إيلاما منه، من معاناة الشعب الأمريكي المعاصر، قمة الفكر والفلسفة والحضارة الواجبة الإتباع من العرب في نظر

الفيلسوف الشيخ، ونظر رفاقه المتهجمين على العقل العربي، والمطالبين بتفلسفه، وإغماض عينيه، وإغلاق عقله!!

لقد انفجر نتيجة فقدان التوازن المستحيل بين العلم والعلمانية كل ما في الأنفس الممزقة تحت وطأة الحضارة الأمريكية الفلسفية والنفعية من علل وأمراض.. لقد انفجر صبر فاقدي الأمن النفسي.. الذين فرض عليهم العجز الطبيعي عن الإيمان أن يموتوا قبل الموت.. أن يجفا بجفاف قلوبهم.. أن يحطموا مصباح الخلد داخل صدروهم.. أن يرتدوا بشرا عدوانيين.. مروضين أو منفلتين.. ليسقطوا في صراع كل يوم بين أنفسهم وأجسامهم.. وبين أجسامهم وحواسهم.. وبين حواسهم وبقايا عقولهم.. وبين بقايا عقولهم ومصائرهم..!!

لذلك فقد أخذت شمس الولايات المتحدة تشرق – مثالا ناطقًا عن غيرها – على صور هذا التدافع الأخير بين الحقيقة والشعوذة.. فبينما أخذ ماك جوجال[1] الذي يلقبونه بأنه أبو علم النفس في القرن العشرين يتاجر في مصائب قومه فيزعم – مع الإقرار بغيبة العقل.. وبالحاجة بعد خيبة الفلسفة إلى العقل – بأنه من الممكن «تعليم العقل».. ثم يمضي ماك دوجال في شعوذته التي لقيت رواجًا في مناخ الشعور أمام النذر الجائمة بالحاجة إلى أي عزاء.. وأي عزاء بعد انهيار الفلسفة إلا في العقل.. ولكن أين العقل بعد الغيبة الفلسفية الطويلة لهذا العقل.. الحل عند ماك دوجال هو تعليم العقل.ز مثل: تعليم العبقرية.. أو تعليم الذكاء.. أو تعليم الجمال.. أو تعليم الانتماء إلى جنس آخر.. وأصالة أخرى.. وخصائص سلالية ولغوية مختلفة!!

---

(1) أقرأ التفاصيل عن هذا الموضوع في كتاب «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب» للمؤلف – دار الجيل.

وهكذا يتسلم آخرون هذا الخيط من الشعوذة العقلية، وبصورة من الدروشة الصوفية الهندية الغريبة على المزاج الأوروبي الأمريكي، فيقدمون لملايين من يواجهون صحوة النهاية، وتبلج الحقيقة في سكرة الاحتضار – هذه «الأوراد» التي يتساقط لعابها من الشعوذة أو الهذيان.. أوراد تعليم العقل، بل تيسير الحصول على «كل المطلوب» بمجرد تكرار الورد.. كما جاء مثيلها فيما قدمه شارل هانل لمواطنيه الأمريكيين في كتابه المشهور في أمريكا واسمه «ماستر – كي» أي «المفتاح الذي يفتح كل باب»، وهو الكتاب الذي يعلم العقل بالدروشة الهندية والأوراد، ليحقق «الحكمة» و«السعادة» و«الأمن النفسي» و«الغنى» وتحقيق «المنفعة» من كل وجوهها.. مجانًا.. ومهما كان الفرد محرومًا من كل القدرات التي تؤهله لذلك.. فقط عليه أن يقرأ الأوراد.. وأن يثق فيها بعقله.. أو بغير عقله.. وعند ذلك سيجد ما يسره تمامًا.. كما وجد قراؤه جميعًا ما يسرهم.. وهو دعوة الإيمان.. ثم اليأس.. ثم الهيمان على الوجوه والضرب في الأرض.. نحو الحق المجهول.

يقول شارل هانل في دروشته وفي أوراده، التي لعلها تكون سببًا في تذكير الدكتور زكي نجيب محمود بحقائق يتخلى بها تماما عن الفلسفة.. أو يتخلى مشكورًا عن زرايته بالعقل العربي.. نعم.. يقول شارل هانل في تعليم ما يغني عن العقل:

«* كيف يربح الإنسان عشرة أضعاف ربحه الحالي!؟..

* كيف يتغلب المرء على الصعوبات، ويتجنب اصطدامه بالأعداء!؟

* كيف يزيد الأبله الجاهل من قوة عقله، ويوقظ النشاط النائم في نفسه!؟

* كيف يتخلق المذنب من آثار الماضي السيئة، ويدخل في تفكير جديد نظيف!؟»..

وفي كتاب هانل بالطبع – لمن يقروه – شرح هذه الطرق «غير المعقولة» للوصول إلى هذه الأهداف غير الممكنة.. والتي لم يصل إليها بغير وسائلها حد..!

وحتى يؤكد هانل قوة المصدر الذي استقى منه هذه الشعوذة التي انتشرت في طول وعرض الولايات المتحدة، يعلن في وضوح عن مصدرها الهندي، وبنفس المفهوم عند الدراويش والمتصوفة في الشرق قديما وحديثا، وذلك حيث يقول في الجزم بالحلول الصوفي:

«إن الإنسان جزء من الإله، وفي استطاعته لذلك أن يصنع كل شيء»!!

ولم يكن باقيًا بعد ذلك إلا الانفجار الأخير في سلسلة هذه الانفجارات المتتابعة على المنزلق نحو الهاوية المفتوحة لهذه الحضارة العلمية بغير إيمان، والفلسفية بغير إنابة أو رجعة.. هذا الانفجار كان في صرخات هؤلاء المرعوبين بكل ما أشرنا إليه من حقائق.. صرخاتهم من أجل المفقود في غيبة العقل المنشود.. صخراتهم من أجل الإيمان.. الإيمان بالحق العقلي، والحق العلمي، والحق الأخلاقي، الذي لم يخطر على بال الإسكندر ولا أفلاطون، ولم يهتز له شعور نيرون أو قيصر، ولا دقلديانوس أو هرقل.. ولم يمر بخيال أولئك الإنجليز الذين قتلوا واغتصبوا عشرات الملايين من الأفارقة الزنوج الذين باعوهم عبيدًا في أسواق أمريكا، ولا أولئك الأوروبيين الذين قتلوا واغتصبوا عشرات الملايين من الهنود الحمر، ومن الزنوج المسخرين في زراعة أرضهم أيضًا، لتخلو للأوروبي الأبيض، الهندي، الفلسفي، الطبقي، العنصري.. كل موارد أمريكا..!!.

لقد ارتفعت نحو «الإيمان» في لحظات للنهاية لهذه الحضارة الفلسفية الغاشمة هذه الأصوات التي لم يسمعها الدكتور زكي نجيب محمود، الفيلسوف الذي يكتب وقلما يقرأ، ويسمع وقلما يقتنع.. مثل صوت العالم النفسي الأمريكي الدكتور هنري لنك الذي أصدر كتابه «العودة إلى الإيمان» والذي جاء فيه بعد عودته هو إلى الإيمان، وبعد أن ذكر الكثير عن حقيقة هذا الإيمان البعيدة عن الخرافة والتحريف والغلو:

«إن كل من يعتنق دينًا، أو يتردد على دار للعبادة، يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له، أو ممن لا يزاول أية عبادة».

ثم بعد هذه الدعوة المبكرة للإيمان، والتي مضت بانفجاراتها حتى بلغت في السنوات الأخيرة – وكما سمعت من بعض العرب العائدين من الدراسة بأمريكا – حد الهستريا، فانتشر هنا وهناك أصحاب الفرق الدينية والمشعوذين، من أمثال الدجال المكسيكي الذي نصب نفسه أخيرا إلاهًا على أتباعه، ثم بداله فقضى عليهم في «المذبحة الانتحارية» حين أمرهم بالموت في طاعته.. لقد تفاقم الأمر فأصبح لكل ولاية إنجيل خاص بها، كما أصبح لكل إنجيل من هذه الأناجيل المتعددة بعدد الولايات تفسير خاص للمسيحية، وفهم مختلف للإيمان.. وهكذا.. حتى انتهى الأمر بخروج قوافل الهيبيز.. والبيتلز.. أو دراويش الحضارة المعاصرة، الفلسفية والعلمية بغير إيمان.. الدراويش المفترى عليهم.. ومتصوفة أوروبا الغرباء.. الذين بدءوا رحلة هذا التصوف. الذي لفظته في أغرب الظواهر ضجات الآلات، وقساوة الفلسفات. بغير أئمة مستورين.. وبغير كشف ولا حلول.. وبغير ادعاء لخوارق وعجائبيات!

هؤلاء الشباب الأبرياء من أسباب مأساتهم، والمفترى عليهم في نظر من يجهلون أمرهم، ويسخرون منهم، فيصفونهم بصفة الهيبز أي

«المحزقين»، والبيتلز أي «الخنافس».. هؤلاء الشباب الذين خرجوا – كما أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الأوهام الطغيانية وغير الأخلاقية لأفلاطون في «جمهوريته الفاضلة» – يبحثون عن إيجاد هذه المعادلة النفسية مع بأسهم وضياعهم، وبعد أن غرقوا عبثًا في تعاطي المخدرات وعقار الهلوسة.. فساروا هائمين على وجوههم في الأرض الواسعة، ليحققوا أحلامهم في اللامكان المجهول، وهم يردون ردًا عمليًا، عفويًا، مأساويًا، على خرافة أفلاطون المشاعية عن جنته الموعودة، والكاذبة، في اليوتوبيا، أي اللامكان..!..

لقد كان متصوفة الشرق من قبلهم، وبعد أن تفلسفوا على أيدي أئمتهم وأقباطهم على الطريق الهندية، حتى بعد أن اعتنقوا الإسلام، يرون في معنى الكلمة التي تعمموا بها، واختاروها الشعار عليهم وحدها، وهي كلمة «المتصوفة» وليس كلمة المسلمين، أو الحنفاء – أنها الصلة الوثيقة بينهم وبين «الفلسفة»، فالصوفية – وبرغم ادعائهم للتستر أنها من الصفو أو الصفاء، مأخوذة من صوفي Sophy التي تعني مع السفسطة أنها «المعرفة السرية العليا للصفوة».. تمامًا مثل جميع فرق هؤلاء المتفلسفة شرقًا وغربًا.. وفي الهند وأوروبا.

ولكن هؤلاء المتصوفة الذين تسربلوا على فلسفاتهم، ومعرفتهم السرية الحلولية الخاصة بالصفوة، والبعيدة تمامًا عن أي صفو أو صفاء مع العقيدة الإسلامية السمحة، أو مع محكمات القرآن ظاهرة وباطنة، قد أفادوا باستمرار تكيفهم من عطاء الإسلام الوافر، فعرفوا – برغم عجمتهم ما قد يعطيهم العذر في ظواهر جنوحهم، وعودتهم إلى المعتقدات السابقة لهم قبل الإسلام في تراثهم. ومن ذلك هذا الشعار الذكي والجذاب الذي رفعوه على طرق دراويشهم، الإيقاظ منهم والرقود.. الواعين منهم أو المغيبين، وهو «الرحلة على الله»..!.

وهكذا مضت قوافل هؤلاء المتحللين من كل قيد، والمتظاهرين – إلا قليلا منهم – تجاه هذه الدنيا بالانقطاع والزهد، هائمين على وجوههم تحت عنوان «الرحلة على الله».. مستمتعين فوق هذه الأرض العربية الغنية بمواردها، والودود بشمسها ونجومها وكواكبها، وبسماحة ومكارم شعوبها وأبنائها.. وقد حفظ لهم تشبثهم باسم الله، كما عرفته لغة العرب وكما أعلن عنه وحي الله في رسالاته إلى العرب بلغة العرب.. وهو غير أسماء الآلهة في معتقداتهم الدينية الأعجمية قبل الإسلام.. لقد حفظ لهم تشبثهم. باسم «الله» الرحمن الرحيم، وفوق أرض العرب، وبالعيش المهادن مع العرب، نعمة الأمن السابغ.. أمن الغاية.. وأمن الأمل.. وأمن الطريق.. الطريق الرحب، والواسع، والمشرق بأشعة الشمس، والمنير بأنوار النجوم، في رحلتهم التي وضعوا لها شعارها الذكي.. الرحلة على الله..!.

أما هؤلاء الشباب الغرباء من متصوفة الغرب.. الذين لفظهم الشوط الأخير على منزلق النهاية المحتومة لحضارة الفلسفة الطبقية، والانحلالات العقلية.. فهم على عكس متصوفة الشرق لا يعرفون باطنًا لظاهرهم.. ولا إمامًا مستورًا لطريقتهم.. وهم لا يداورون ولا يخادعون.. كما أنهم لا يتمخرقون ولا يتذاهلون.. وهم في هيامهم على وجوههم في اللامكان لا يعلنون التفلسف بشيء، فهم ضحايا التفلسف الطويل، وقد استدبروا برحلتهم إلى «الحق المجهول» أي تفلسف في أي شيء..!!.

ولئن كان هؤلاء المتصوفة الغربيون، المتدافعون على الطرق، انطلاقا من أمريكا وأوروبا نحو اللامكان.. وجنة الحق المجهول.. البعيدة المنال.. لأنها في غير مكان.. لئن كان هؤلاء الشباب الضائعون – بخلاف دراويش الشرق الهائمين بالرحلة على الله – لا يدعون خلقًا كريمًا.. ولا يعرفون دينًا حقًا.. فهم يعيشون في رحلتهم نحو الحق المجهول في حياة

مشاعية بغير أموال، وبغير زواج شرعي، وبغير أولاد.. إلا أنهم لا يأثمون في شيء في حدود ما هو ظاهر من سلوكهم، ومن هذا اليتم العالمي في مأساتهم. وهم في انطلاقهم الصامت نحو الحق المجهول منهم، والمنشود في أعمق أعماق وجدانهم، يعلنون بهذا الصمت، وبهذا التجوال المشاعي الرخيص والحزين، وحقائبهم بكل ما يمتلكون وراء ظهورهم، وأيديهم عندما ينامون تحت خدودهم – أنهم عاشوا طويلا تحت مستوى هذا الحق الذي خرجوا إليه.. في أقرب ما يظنون أنه يشرق منه.. وهو اللامكان.. واللازمان أيضًا.. هذا الحق الذي يهدي إليه العقل السليم، واللسان المبين، حين يهدي إلى الدين الحق.. وإلى الله الحق.. وإلى الصراط المستقيم.

هؤلاء الهائمون الغرباء من متصوفة الغرب.. وواحدة من آيات الله في هذا العصر.. نراهم كثيرًا في بلادنا العربية.. ونراهم أكثر في مصر المضيافة بطبيعتها ومناخها وشعبها.. نراهم في تجوالهم الهائم نحو الحق المجهول.. والجنة الموعودة.. في غير مكان معلوم.. أو زمان محدد.. يسيرون متواضعين في خطاهم.. وبحياتهم الملخصة في حقائبهم.. واللاشعورية أحيانا في شبه التعري لفتياتهم.. نراهم يطلبون في مصر شمسها قبل كل شيء.. لأنها الرمز لإشراق هذا الحق المجهول.. حتى إذا ما وجدوا الشمس بحثوا عن أقرب الطرق وأنسبها ليتعروا بأجسامهم لعطائها.. ثم استلقوا لها على العشب الأخضر ظهرًا وبطنًا، مغمضي الأعين والحواس.. لا يأبهون لشيء حولهم، إلا هذه الشمس التي يسألونها في الصمت عطاءها للمحروم، وسرها للمضيع.. سرها عن هذه البشاشة في أهلها.. وعن هذا الأمن في أعينهم.. وعن هذه النغمة بالمحبة في أصواتهم.. وهذا البذل من غير سؤال للغرباء عنهم..!

ثم ينهض هؤلاء المتصوفة القادمون من الغرب، والهائمون على وجوههم نحو الحق المجهول.. ينهضون من صلاتهم العارية تحت أضواء الشمس الهادية.. ينهضون ليجدوا نورًا في أبدانهم.. وحزنًا وصمتًا وإبهامًا فيما بقى لهم من شعورهم وإدراكهم.. ومن ثم يضعون حقائبهم وراء ظهورهم.. اثنين اثنين.. بغير أموال.. وبغير زواج.. ردًا صامتًا بليغًا على «يوتوبيا أفلاطون» واختلاط عقله، وعلى فلسفته وسقوط خلقه..!!

إن الرد البليغ أمام من يتفكرون في خلق الله، ويتدبرون آياته.. إنه واحدة من آيات الله بهذا العصر يراها العرب.. ليتعظوا ويعتبروا.. ويعتصموا بما اصطفاهم الله له من حق معلوم، ومحكم ظاهر، وتنزيل حكيم.. وهم يرون في قوافل هؤلاء الشباب الأبرياء حجة هذه الحضارة الفلسفية الأوروبية على نفسها.. بعد أن انعتقوا في حالة الذهول بمأساة النهاية لهذه الحاضرة من قيود العلاقة بهذه الفلسفة، من جذورها الأولى، وحتى مرارات ثمارها الأخيرة.. فخرجوا نحو غير المكان وغير الزمان.. رهبانًا بغير صلبان.. ومتورعين بغير إيمان.. يطلبون هذا الحق المجهول، والفردوس المنشود.. بعد أن فقدوا في أوطانهم وهي تحترق.. كل شيء.. فقدوا الغاية ... وفقدوا الأمل ... وفقدوا الطريق!!!